سلسلة قصصية

ألجيرنون بلاكوود

ترجمة: جورج نبيل

تحرير: رفعت فرج

جون سايلنس في قضية

انتقام النار

case lll



مكتبة ٩٨٧

انتقام النار

ألجيرنين بلاكوود

Author: Algernon Blackwood,

John Silence Case III: The Nemesis of Fire

Translated from English by:
George Nabeel

ترجمها عن اللُّغة الإنجليزية:
جورج نبيل

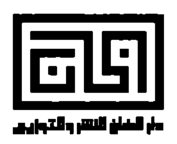
Edited by:
Refaat Faraj

تحرير:
رفعت فرج

Design by:
Digitalized Kuwait

الإخراج الفني:
ديجيتليزد كويت

الطبعة الأولى | سبتمبر 2020
ISBN: 978-9921-712-33-9
رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية - دولة الكويت:
2020/0892



+965 99462219 / +965 51088000
@DarAlkhan_kw Info@daralkhan.com



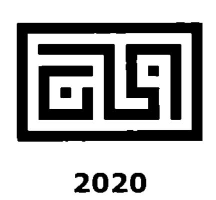
مكتبة | سُر مَن قرأ | 987

جون سايلنس
في قضية

انتقام النار

ألجيرنين بلاكوود

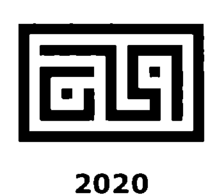
ترجمة
جورج نبيل



2020

Algernon Blackwood

John Silence Case III: The Nemesis of Fire



2020

1

استطاع جون سايلنس انطلاقا من بعض الوسائل التي لم أستطع فهمها قطُّ، أن يحتفظ بمقصورته في القطار، وبينما كان القطار مستمرًا في رحلته مدة ساعتين قبل محطّته الأولى، كان هناك متّسعٌ من الوقت لاستعراض الحقائق الأوّلية للقضية. لقد هاتفني في ذلك الصباح، وعلى التغيير الذي يحدث عبر أميال الأسلاك، بدا على صوته ذلك الاضطرابُ الشديدُ المتعلّق بمغامرة ليس لها حدود واضحة.

هتف ردًّا على سؤالي: «يبدو الأمر كما لو أنّها زيارة ريفية عادية. ولا تنس إحضار بندقيّتك».

«مع خراطيش فارغة، أليس كذلك؟»... لأنّني عرفت مبادئه الصارمة فيما يتعلّق بالحفاظ على الحياة، وخمّنت أن الأسلحة لم تكن إلا لغرض التنكر.

شكرني على القدوم، وأشار إلى موضوع القطار، ثم أغلق بسرعة، وقد تركني متوجّسًا من فرط الترقب بينما أعبّئ حاجاتي. فيما يتعلّق بشرف مرافقة د.جون سايلنس في إحدى قضاياه الكبيرة، عدَّه الكثيرون شرفًا تافهًا ومحفوفًا بالمخاطر.

من المؤكّد أنّ المغامرة كانت تحمل كلَّ أنواع الاحتمالات. وصلت إلى واترلو بمشاعر رجل يُقدِم على مهمّةٍ ما خطيرة وغريبة، من المتوقّع ألَّا تشبهَ مخاطرُها تلك الأخطارَ العادية في حياة المرء، ولكن هناك بعض الشخصيات السرية مَن يصعب ذكرُها ولا يزال من الصعب التعامل معها.

عندما جلسنا لنتحدث وأقدامنا مرفوعة، أخبرني: «أنّ منزل مالك المزرعة شديد البذخ، لكنّني أعتقد أنّه أكثر قليلاً من مجرّد منزل في مزرعة، في بلدٍ مهجورٍ ينمو في أرضه نباتُ الخلنج. مالكه هو الكولونيل راج، وهو جنديٌّ متقاعدٌ مولعٌ بالكتب، يعيش وحيدًا، على ما فهمت، مع أخت عجوز معتلّة، ومن ثمَّ لا يُنتظر القيام بزيارة تملؤها البهجةُ والحيوية، ما لم توفّر القضية بعض الإثارة من تلقاء نفسها».

«ما هو المرجح؟».

سلَمني رسالة؛ إجابةً عن السؤال، موسومةً بعلامة «خاص». كانت مؤرّخة منذ أسبوع مضى وفيها توقيع «المخلص، هوراس راج».

أوضح الطبيب بتواضع كما لو أنّ شهرته لم تكن تقريبًا في جميع أنحاء العالم: «لقدً سمع عنّي، كما تعلم، انطلاقا من

الكابتن أندرسون... أنت تتذكّر حالة الوسوسة المتعلّقة بذلك الهنديّ...».

قرأت الرسالة. لماذا كان من الصعب أن يُفهم معنى الوسم بعلامة «خاصّ». كانت قصيرة جدًّا ومباشرة ومركّزة. لقد أشار إلى تقديم الكابتن أندرسون له، ثم ذكر فقط أن الكاتب يحتاج إلى مساعدة من نوع خاصّ، وطلب مقابلة شخصية في الصباح لأنّه كان من المستحيل بالنسبة له أن يتغيّب عن المنزل ليلًا. كانت الرسالة مَهيبة إلى درجة الفظاظة، ومن الصعب تفسيرُ كيف تمكّنت من أن تنقل انطباعًا لي بأنّه رجلٌ قويٌّ متداعٍ وحائر. ربّما قيود الصياغة وغموض القضية لهما علاقة بذلك، والإشارة إلى قضية أندرسون، التي لا يزال رعبُها حاضرًا في ذاكرتي، وقد لامس شيئًا ما مشؤمًا وخطرًا. ولكن -وبغض النظر عن السبب- لم يكن هناك شكٌّ في أنّ ثمة انطباعًا يشي بالخطر الشديد قد نشأ بطريقة أو بأخرى من تلك الورقة البيضاء مع الأسطر القليلة المكتوبة بحزم، وأنّ شعورًا بالقلق الشديد بدأ يسري بين الكلمات ويصل إلى العقل دون أيّ صيغة تعبيرية مرئية.

سألته: «ومتى رأيته؟»... وأعدت له الخطاب، بينما كان القطار يهرعُ صاخبًا أثناء محطّة كلافام جانكشن.

كان ردُّه كالآتي: «لم أرَه. كان عقلُه مشحونًا عن آخره عندما كتب ذلك؛ كان مليئًا بصور عقلية نشِطة. وقد لاحظ كيف يكبحُ نفسَه في ذلك. لأنّه يمكن الاعتماد على السمة الرئيسة بحسب القياس النفسي لحالته. وكانت قصاصة الورق التي لمستها يدُه كافيةً لإعطاء أيّ عقل حسّاس وعطوف، صورًا ذهنية واضحة لما يجري. أظن أنّ لديّ فكرةً عامة جيدة عن مشكلته».

«إذن، هل ستكون هناك إثارة؟».

توقّف جون سايلنس لحظة قبل أن يردَّ.

أخيرًا قال برصانة: «هنالك شيءٌ ما خاطئ للغاية. على ما يبدو هناك شخصٌ ما -ليس هو نفسه- كان يتدخّل تدخلًا خطيرًا نوعًا ما. لذا، نعم، قد تكون هناك إثارة، حسب قولك».

سألت باهتمام متزايد بلا شكّ: «ماذا عن واجباتي؟ تذكّر، أنا مساعدك».

«تصرّف مثل سكرتير ذكيّ موثوقٍ به. راقب كلّ شيء دون أن يبدوَ عليك ذلك. لا تقل شيئًا؛ أيّ شيء له معنى. كن حاضرًا في جميع المقابلات. قد أطلب منك الكثير، فإذا كانت انطباعاتي صحيحة، فهذا...».

ثم توقّف فجأة.

استأنف حديثه بعد لحظة من التفكير: «لكنّني لن أخبرك عن انطباعاتي الآن. فقط راقب واصغ مع استمرار القضية. كوِّن انطباعاتك الخاصّة وطوّر بصيرتَك. نحن نأتي بوصفنا زائرين عاديين، بالطبع». ثم أضاف، وقد ظهر لحظة وميضٌ في عينيه. «إذن إلينا بالأسلحة».

على أنّني شعرت بعدم الرغبة في سماع المزيد، فقد أدركت حكمةَ كلماته، وعرفت كيف ستكون انطباعاتي بلا قيمة عند سماعي كلماته ذات التأثير القويّ. فكّرت أيضًا أنّ ذلك الحدس المرتبط بروح الدعابة كان أكثر فائدة للرجل بمقدار ضعفَين من مجرّد التفكير الخالص.

ومع ذلك فقبل أن يعيدَ الرسالة إلى مكانها، أعادها إليّ وطلب منّي أن أضعَها مقابل جبهتي بضع لحظات وأن أصف أيَّ صور خطرت على بالي تلقائيًّا.

«لا تبحث عن أيّ شيء عمدًا. فقط تخيّل أنّك ترى داخل جَفن العين وانتظر الصور التي تظهر على شاشته المظلمة».

اتّبعت تعليماتِه، جاعلًا من عقلي خاويًا قدر الإمكان.

لكن لم تردّني رؤى. لم أر سوى خطوط الضوء التي تمرّ جيئة وذهابًا مثل تغييرات المشكال عبر السواد. اعتراني إحساسٌ بالدفء برهةً ثم انقضى بغرابة.

سأل في الحال: «ماذا ترى؟».

كنت مضطرًّا للاعتراف بخيبة أمل: «لا شيء... لا شيء سوى ومضات الضوء المعتاد أن يراها المرء. ربما هي فقط أكثر وضوحًا من المعتاد».

لم يقل شيئًا في صورة تعليق أو ردّ.

تابعت الحديث بصراحة مؤلمة؛ لأنّي كنت أتوق لرؤية الصور التي تحدّث عنها: «يتجمّعون بين الحين والآخر. يتجمّعون في كرات وكرات نارية مستديرة، وفي بعض الأحيان تبدو الخطوط التي تومض حولها وكأنّها مثلثات وصلبان، تقريبًا مثل الأشكال الهندسية. لا شيء أكثر من ذلك».

فتحت عيني مرة أخرى، وأعدت له الرسالة.

قلت: «ذلك يجعل رأسي ساخنًا»، شاعرًا أنّني في وضع يرثى له لعدم رؤيتي أي شيء يثير الاهتمام. لكنّ نظرة من عينيه قد أسرت انتباهي في الحال.

قال بطريقة لها دلالة: «هذا الإحساس بالسخونة مهمّ».

أجبته آملًا أن يسهب ويشرح: «كان بالتأكيد حقيقيًا وغير مريح إلى حدّ ما. كان هناك شعور واضح بالدفء؛ دفءٍ داخليّ في مكان ما. شعور طاغٍ».

فعلّق قائلاً: «هذا مثير للاهتمام»، وأعاد الرسالة إلى جيبه، واستقرّ في الركن بين الصحف والكتب. لم يقل شيئًا أكثر من ذلك فأدركت عدم جدوى محاولة أن أجعله يتحدّث. وتقليدًا لما فعله، استقريت بالمثل بين المجلات في ركني. ولكن عندما أغمضت عيني مرة أخرى للبحث عن الأضواء الساطعة والإحساس بالسخونة، لم أجد شيئًا سوى سلسلة الأوهام المعتادة لأحداث اليوم؛ الوجوه والمشاهد والذكريات، وفي الوقت المناسب غفوتُ ولم أر شيئًا على الإطلاق.

عندما غادرنا القطار بعد سفرنا مدة ست ساعات، في محطة جانبية صغيرة تقف دون أشجار في عالم من الرمال والنباتات المختلفة؛ إذ أسدلت ظلال أواخر أكتوبر حجابَها الكئيب على المناظر الطبيعية، وتوارت الشمس بعيدًا عن الأنظار وراء تلال المستنقعات. كنا نثرثر عبر المساحات المتموّجة في ريف مفتوح كئيب، في عربة يجرها حصان سريع. كان الهواء

الشديد يلسع خدودنا وتفوح رائحة الصنوبر والسرخس بقوة من حولنا. كانت التلال العارية مرئية بشكل ضعيف في الأفق. أشار سائق العربة إلى كومة من الظلال البعيدة الموجودة على يسارنا حيث كان البحر يكمن هنالك كما أخبرنا. كانت المنازل الريفية القليلة، المصنوعة من الحجر، الموجودة خلف الطريق بين أشجار التنوب المتشابكة والحظائر السوداء الكبيرة التي بدت كأنّها تتجوّل بيننا في الظلام -كانت هذه هي العلامات الوحيدة التي رأيناها والتي تدلّ على وجود بشر وعمران- حتى إنّ في نهاية خمسة أميال توهّجت أمامنا أضواء بيوت صغيرة، فدخلنا بستانًا كثيفًا من أشجار الصنوبر، قد أخفى منزل مالك المزرعة حتّى لحظة وصولنا الفعلية.

قابلنا الكولونيل راج بنفسه في البهو. لقد كان ضابط جيش نموذجي، من أولئك من فهموا الخدمة؛ الخدمة الحقيقية وانهمك فيها. لقد كان طويل القامة ذا بنية جيّدة، عريض الكتفين، ولكنّه كان نحيلًا كالسلوقي، بعيون مهيبة، صارمة إلى حدّ ما، وشارب يميل إلى اللون الرمادي. لقد افترضت أنه في حوالي الستين من عمره، ولكن حركاته أظهرت مرونة وقوة ورشاقة تتناقض مع عمره. كان الوجه مميّزًا للغاية، ويشي بالصرامة، وجه رجل يُعتمد عليه. بدت لي العيون الرمادية

المباشرة وكأنها ترتدي حجابًا من القلق المحير والذي لم يحاول إخفاءه. في الحال دل مظهر الرجل على جاذبية وأهمية المغامرة. شعرت أن المسألة التي تسببت في قلق شديد لمثل هذا الرجل لابد وأنها كانت شيئًا حقيقيًا له خطورة فعلية.

كان كلامه وأسلوب ترحابه بنا، مثل رسالته، متواضعًا وصادقًا. كانت لديه طبيعة مباشرة وغير منحرفة مثل الرصاصة. وهكذا، أظهر بوضوح دهشته من أن الدكتور سايلنس لم يأت بمفرده.

قال الطبيب وهو يقدمني له: «السيد هوبارد، سكرتيرتي الخاص»، فكانت النظرة الثابتة، وهزة اليد القوية التي تلقيتها، محسوبة جيدًا. وأتذكر أنني كنت أفكر وأنا عائد إلى المنزل، في انطباعي عنه، أنه رجلٌ لا يمكن الاستهانة به، ولابد أن اضطرابه نتيجة لسبب حقيقي وملموس. ومن الواضح تماما أنه شعر بالارتياح لمجيئنا. كان ترحيبه بنا حقيقيا بلا أدنى شك.

قادنا في الحال إلى غرفة، تشبه المكتبة من ناحية، ومن ناحية أخرى تبدو مثل غرفة للتدخين، كانت مفتوحة على القاعة ذات السقف المنخفض. أعطانا مالك المنزل انطباعًا بأننا نقوم بجولة رائعة في منزل المزرعة، وقد بدا متينًا، قديمًا، مريحًا،

ومتواضعًا تمامًا. وكان كذلك فعلًا. أدهشتني فقط سخونة المكان على أنّها غير طبيعية. قد تبدو هذه الغرفة، الموجودة بها المدفأة، دافئة بشكل غير مريح بعد القيادة الطويلة في الهواء ليلاً. مع ذلك بدا لي أنّ القاعة نفسها والجوّ كله في المنزل، يبثّان الدفء، الذي من الصعب أن يكون السبب فيه المواقد الممتلئة جيدًا أو أنابيب الهواء والماء الساخنين. لم تكن سخونة دفيئة زراعية. كانت سخونة شديدة جدًّا، اخترقت الرأس والعقل بطريقة أو بأخرى. لقد أثار ذلك شعورًا غريبًا بعدم الارتياح في نفسي، ووجدت أنني أفكّر في الإحساس بالدفء الذي انبثق من الرسالة في القطار.

سمعته يشكر د.سايلنس على مجيئه. لم تكن هناك مقدّمة، وكان تبادل المجاملات يتمّ في أضيق الحدود. من الواضح أنّ أمامنا رجلًا يحبّ الأفعال أكثر من الكلمات، مثل رفيقي. كانت طريقته واضحة ومباشرة. رأيته في ومضة؛ متحيرًا، قلقًا، ومنزعجًا بسبب حالة من القلق من شيء ما لم يستطع فهمه، واضطرّ للتعامل مع الأشياء التي كان يفضل أن يحتقرها، لكنّه كان يواجه كلّ ذلك بجدّية عنيدة ولا يبذل أيّ محاولة لإخفاء شعوره بالخجل من عدم أهليته.

قال مع انحراف طفيف في رأسه نحوي بطريقة تنطوي على أنّني محلّ ثقة له: «لذلك لا يمكنني أن أقدّم لكم الكثير من الترفيه أكثر ممّا في رفقتي، والأعمال الغريبة التي كانت موجودة هنا وما زالت مستمرة».

أجاب جون سايلنس بشكل مثير للإعجاب: «أظن أيّها الكولونيل راج أنّ أيًّا منّا لن يجد الوقت يمرّ بطيئًا. أعتقد أننا سوف نتعاون».

نظر الرجلان بعضهما إلى بعض بضع ثوانٍ، وكانت هناك ميزة لصمتهما لا يمكن تحديد نوعها، سمحت لي بسؤال سريع أول مرّة في عقلي. تعجّبت قليلاً من اندفاعي في تأمّلي القليل، وأنا في صحبة هذا الطبيب الذي لا يمكن التنبّؤ بما سيفعله. لكن لم تفرض أي إجابة نفسها، وبالطبع كان الانسحاب أمرًا لا يمكن تصوّره. لقد أُغلقت الأبواب خلفي الآن، وكانت روح المغامرة تحاصر عقلي بالفعل، مع قليل من الآمال، وكثير من المخاوف.

قادنا إلى الطابق العلوي وأرانا غرفنا بشكل شخصي، وأوضح أنه سينتظر حتّى موعد العشاء لمناقشة أيّ شيء خطير، لأنه لا يمكن الإدلاء بأيّ شيء أمام أخته. وعندما كنت أنتهي من ارتداء ملابسي، سمعت طرقة على بابي دخل إثرها د.سايلنس.

لقد كان يبدو دائمًا رجلاً جادًّا حتّى في لحظات الضحك، كنت أشعر أنّه لم يغفل قطّ عن الأهمّية الشديدة للحياة، لكن عندما صادفني في الغرفة لاحظت تعبيرات وجهه، وفهمت من فوري بأنّه كان في حالة مزاجية جادّة وخطيرة جدًّا. كان يبدو مضطربًا. توقّفت عن تحسّس رباطة عنقي السوداء وحدقت.

قال وهو يتحدّث بصوت منخفض: «إنّه أمر خطير، أكثر حتّى ممّا كنت أتخيّل. لقد أخْفتْ سيطرة الكولونيل راغ على أفكاره، قدرًا كبيرًا من القياس النفسي للرسالة. على كلّ حال، لقد أتيت إليك لتحذيرك كي تكون متأهبًا تمامًا».

سألته ورجفة تسري أسفل ظهري: «منزل مسكون؟».

لكنّه ابتسم بشدة من السؤال.

أجاب: «على الأرجح منزل مسكون بالحياة»... ثم لاحت نظرة في عينيه لم أرها إلا عندما تكون الروح البشرية في شرك، وكان في خضمّ المعركة يناضل لأجل الإنقاذ، لكنه كان منفعلا بشدة.

سألته على عجل لأن ناقوس الخطر كان يدقّ: «الكولونيل راج أم أخته؟».

قال وهو في مدخل الباب: «لا هذا ولا تلك بشكل مباشر. شيء أقدم من ذلك بكثير. شيء أبعد من ذلك بكثير جدًا في الواقع. يتعلّق هذا الأمر بالعصور الغابرة، ما لم أكن مخطئًا إلى حدّ كبير؛ العصور التي ظلّ ضباب الذاكرة عليها طويلًا دون عائق».

عبر أرضية الغرفة بسرعة شديدة، وإصبعه على شفتيه، وهو ينظر إليّ بنظرة متفحصة غريبة.

سأل هامسًا: «هل أنت على علم بأي شيء غريب هنا؟ أي شيء، على سبيل المثال، لا يمكنك تحديده تمامًا؟ أخبرني يا هوبارد لأني أريد أن أعرف كل انطباعاتك. ربما يساعدني ذلك».

هززت رأسي، متجنبًا نظرته، لأن شيئًا لاح في عينيه، وأشعرني بالخوف. كان جدّيًا حتّى إنّني استجمعت ذهني في البحث.

أجبت بصدق: «لا شيء بعد»، متمنّياً أن أتمكّن من الاعتراف بمشاعر حقيقية. «لا شيء سوى سخونة المكان الغريبة».

قفز قفزة صغيرة للأمام في اتجاهي.

هتف، كما لو كان سعيدًا بتأييدي: «إنّها السخونة مرة أخرى. ذلك هو الأمر! وكيف تصفها إذن؟». سأل بسرعة ويده على مقبض الباب.

قلت وأنا أبحث في ذهني عن تعريف: «لا تبدو أنها سخونة طبيعية».

قاطعني: «إنها سخونة عقلية بدرجة أكبر؛ توهج الفكر والرغبة، إنه نوع من الدفء المحموم للروح، أليس كذلك؟».

أقر أنه قد وصف مشاعري بدقة.

قال: «حسنًا!». عندما فتح الباب، وبإشارة لا توصف، تجمع بين التحذير لأكون جاهزًا مع وجود علامة ثناء على حدسي الصحيح، رحل عني.

أسرعت وراءه، فوجدت الرجلين في انتظاري أمام المدفأة.

قال مضيفنا عندما دخلتُ: «يجب أن أحذرك أن أختي، التي ستلتقيها في العشاء، ليست على دراية بالهدف الحقيقي لزيارتكما. لديها انطباع أننا مهتمون بنوعية الدراسة نفسها؛

وهي الفولكلور، وأن أبحاثك هي التي قادتك لمعرفتي. إنها تأتي لتناول العشاء على كرسيِّها، وسيكون من دواعي سرورها الكبير أن تلتقي بكما معًا. يأتي إلينا عدد قليل من الزوار».

لذلك، فعند دخولنا غرفة الطعام، كنا مستعدين لأن نجد بالفعل السيدة راج في مكانها، جالسَة على نوع من مقاعد المرضى. كانت سيدة عجوز مرحة وساحرة، جميلة العينين، مبتسمة، وتجاذبت أطراف الحديث طوال العشاء بعفوية لا تنضب. كان لديها ذلك الوجه النضر غير المجعّد، الذي يحمله بعض الناس طوال الحياة من المهد إلى اللحد. كان لون خديها الناعمين اللامعين ورديًّا وأبيضَ، وكان شعرها، الذي لا يزال داكنًا، مقسم إلى نصفين لامعين وأنيقين لتلوح فرقة شعر دقيقة. ارتدت نظارات مطلية بالذهب، وفي عنقها كان هناك بروش جميل جدًّا، على شكل جعران كبير من يشب أخضر.

تحدّث شقيقها والدكتور سايلنس قليلاً، حتّى إنّ معظم الحديث جرى بيني وبينها، وحكت كثيرًا عن تاريخ المنزل القديم؛ الذي لم أعره اهتمامًا كبيرًا.

أفشت سرًّا وقالت: «وعندما أقام كرومويل هنا، شغل معظم غرف الطابق العلوي التي كان من المعتاد أن تكون لي.

لكن أخي يظن أنّ النوم في الطابق الأرضي أكثر أمانًا لي الآن في حالة الحريق».

وقد ظلّت هذه الجملة في ذاكرتي فقط بسبب الطريقة المفاجئة التي قاطعها بها شقيقها، وقد غيَّر الحديث إلى موضوع آخر على الفور. يبدو أن الإشارة العابرة إلى الحريق قد أزعجته، ومن ثم وجَّه مسار الحديث بنفسه.

كان من الصعب تصديق أنّ هذه السيدة العجوز المفعمة بالحيوية، التي كانت تجلس بجانبي وتهتمّ بشدة بشؤون الحياة، كانت من الناحية العملية، كما فهمنا، لا تستخدم أطرافها السفلية، وأنّها أمضت حياتها كلّها لأعوام، بين الأريكة والفراش والمقعد المتحرك الذي تجاذبت الحديث عليه بشكل طبيعي على طاولة العشاء. لم تلمّح إلى آلامها إلى أن وصلت الحلوى وبعد ذلك أعربت بطريقة مختصرة لطيفة، وهي تلمس الجرس، عن رغبتها في أن تتركنا «كما ينفذ الزمن من بين أيدينا سريعًا»، ثم خرجت من الحجرة على كرسيها المتحرك بمساعدة الخادم الذي ذهب بها إلى غرفتها في الطرف البعيد في المنزل.

لم نكن في حالة تسمح لنا بمتابعة الأمر، فكنت أنا و

د.سايلنس حريصين تمامًا على معرفة طبيعة مهمتنا كما ينقلها مضيفنا إلينا. قادنا عبر ممرّ طويل إلى غرفة في أقصى نهاية المنزل، وهي غرفة مزودة بأبواب مزدوجة ونوافذ؛ رأيت أنّها كانت مغلقة بشدة. كانت هناك كتب تصطفّ على الجدران من كلّ جانب، وكان هناك مكتب كبير عند تقوّس النافذة، يتكدّس عليه عدد كبير من المجلّدات، بعضها مفتوح وبعضها مغلق، عالقة بين أوراق الشجر، ويهر من بعضها قصاصات من الورق بين صفحات الكتاب، وكان كلّ شيء غارقًا في شلال من الورق ذي القطع الكبير والصغير المفكوكة بعض الشيء.

أوضح الكولونيل راج بصورة لطيفة تنمّ عن فخر متواضع، كما لو أنه كان باحثًا جادًا للغاية، وقال: «هذه هي غرفة عملي ودراستي». أحضر لنا مقاعد بمساند حول المدفأة. وأضاف بطريقة جادّة: «هنا سنكون في مأمن من المقاطعة حيث يمكننا التحدث بأمان».

كان أسلوب الطبيب، أثناء العشاء، طبيعيًا وعفويًا، على أنه كان من المستحيل بالنسبة لي، وأنا على دراية به، ألا أدرك أنه كان في حالة تأهّب شديد، دون وعي منه، وأنه تلقّى بالفعل انطباعات واضحة ومختلفة في عقله شديد الحساسية. وكان

هناك شيء ما في جدّية وجهه، كما هو الحال في اللهجة المعبّرة في حديث الكولونيل راج، وهناك شيء ما أيضًا يتعلّق بحقيقة أنّ ثلاثتنا كان مغلقًا علينا في هذه القاعة الخاصّة، وعلى وشك الاستماع لأشياء ربّما تكون غريبة وغامضة بالتأكيد. ثمّة شيءٌ ما في كلّ هذا لمس مخيّلتي بحدّة، وجعل أعصابي تضطرب جدًّا. أخذت المقعد الذي أشار إليه مضيفي وأشعلت سيجاري وانتظرت بدء الهجوم، مدركًا تمامًا أنّنا ذهبنا إلى حدّ بعيد للغاية في المغامرة بدرجة لا تسمح لنا بالانسحاب، وتساءلت بقلق، إلى حدٍّ ما، إلى أين ستقودنا؟

من الصعب القول ماذا كنت أتوقّع بالتحديد. ربّما لا شيء محدّد. كان التغيير المفاجئ دراميًّا. قبل ساعات قليلة كان الجوّ الممل في بيكاديللي يحيط بي، وأما الآن فقد كنت جالسًا في غرفة سرية في هذا المبنى القديم النائي، منتظرًا الاستماع إلى سرد لأشياء ربما تتعلق بمركز الرعب الحقيقي. فكَّرت في الأراضي القاحلة والتلال الكئيبة بالخارج، وأجمات الصنوبر الداكنة التي تهمهم في ريح الليل. تذكّرت كلمات رفيقي الغريبة في غرفة نومي قبل العشاء، ثم التفتُّ ولاحظت بعناية معالم وجه الكولونيل العابسة عندما واجهنا وأشعل سيجاره الأسود الكبير قبل التحدث.

إن بداية المغامرة هي دائمًا اللحظة الأكثر إثارة، حتى تصل إلى ذروتها. هذا ما جال بخاطري عندما انتظرت الكلمات الأولى.

لكن الكولونيل راج تردّد طويلًا قبل أن يتحدّث. لقد تحدث باختصار عن رحلتنا والطقس والريف وغيرها من الموضوعات التافهة نسبياً، بينما سعى في ذهنه لدخول مناسب في الموضوع الذي كان في صدارة تفكيرنا جميعًا. الحقيقة هي أنه وجد صعوبة في التحدث عنه عامّة، وكان د.سايلنس هو الذي أظهر له أخيرًا طريقًا لتجاوز تلك الصعوبة.

قدم اقتراحًا: «سيُدوِّن السيد هوبارد بعض الملاحظات عندما تكون جاهزًا. أعتقد أنك لن تعارض ذلك. بهذه الطريقة يمكنني أن أنتبه بشكل كامل».

حدق فيّ، واستدار كي يجلب بعض الأوراق الطليقة على طاولة الكتابة وقال: «بكل تأكيد». أظن أنه لم يزل مترددًا قليلًا. قال معتذرًا: «الحقيقة هي أنني أتساءل عما إذا كان من العدل تمامًا أن أزعجك في هذا الوقت. قد يناسبك أكثر ضوء النهار لسماع ما يجب أن أقوله؛ أعني أن ذلك ربما يكون أقل ازعاجًا لنومك».

أجاب جون سايلنس بابتسامته اللطيفة: «إنني أقدر مراعاتك لمشاعر الآخرين»، ثم تولى قيادة الأمر منذ تلك اللحظة. «لكننا بالفعل محصنان تمامًا. على ما أظن، لا يوجد شيء يمكن أن يمنعنا من النوم، باستثناء اندلاع النار أو بعض الاضطرابات الجسدية الشديدة».

رفع الكولونيل راج عينيه ونظر إليه بثبات. شعرت بيقين، بأن هذه هي الإشارة إلى اندلاع النار، قد قيلت لغرض معين. من المؤكد أن ذلك كان له التأثير المطلوب المتمثل في إزالة آخر علامات التردد من طريقة سلوك مضيفنا.

قال: «اعذرني. بالطبع أنا لا أعلم شيئًا عن أساليبك في مثل هذه النوعية من الأمور، لذ ربما تريد مني أن أبدأ على الفور وأن أعطيك ملخصًا للموقف. أليس كذلك؟».

انحنى د. سليلنس موافقًا وأضاف بهدوء: «يمكنني بعد ذلك اتخاذ احتياطاتي وفقًا لذلك».

نظر الجندي للحظة وكأنه لم يستخلص معنى هذه الكلمات تمامًا؛ لكنه لم يبدِ أي تعليق إضافي، فتحول في الحال لمعالجة موضوع من الواضح أنه تحدث فيه على استحياء وعدم رغبة.

بدأ يتحدث وهو ينفث دخان سيجاره أثناء كلامه وقال: «لقد خرجت الأمور عن خط سيرها الطبيعي تمامًا، وما يمكنني أن أقدمه لكم بمثابة أدلة حقيقية، قليل جدًا، لأنه في الغالب من المستحيل أن أنسج قصة متسلسلة لكما. إنه التأثير التراكمي الكلي وهو مقلق جدًا جدًا». لقد اختار كلماته بعناية كما لو كان مصممًا ألا يبتعد عن الحقيقة قيد أنملة.

تابع حديثه قائلًا: «لقد جئت إلى هذا المكان منذ عشرين عامًا مضت عندما توفي أخي الأكبر، لكن لم يكن بإمكاني العيش هنا. لقد قامت أختي -التي قابلتها في العشاء- بتولي نفقات المنزل حتى النهاية وطوال كل هذه السنوات، بينما كنت أحارب في الخارج. اهتمت بالمكان لأننا لم نحصل أبدًا على مستأجر يرضينا، ورأت أنه لا يجوز أن يؤول المنزل إلى العطب. على أي حال لقد توليت شخصيًا ملكية المنزل منذ عام واحد مضى».

استمر بعد فترة توقف ملحوظة: «لقد قضى أخي الكثير من وقته بعيدًا أيضًا. لقد كان مسافرًا عظيمًا، وملأ المنزل بأشياء أحضرها إلى المنزل من جميع أنحاء العالم. لقد حوَّل مكان المغسلة -وهو مبنى صغير منفصل عن أماكن سكن الخدم-

إلى متحف صغير منظم. لقد قمت بإزالة التحف النادرة والأشياء التي كانت مليئة بالغبار والتي كانت تنكسر دائمًا. ستشاهد غرفة الغسيل غدًا».

تحدث الكولونيل راج بمثل هذه الروية، مع وقفات كثيرة أثناء الحديث، حتى أن هذه البداية استغرقت منه فترة طويلة. ولكن عند هذه النقطة، توقف عن الكلام تمامًا. من الواضح أن هناك شئ ما أراد أن يقوله، كلَّفه جهدًا كبيرًا. في النهاية تطلع طويلًا إلى وجه رفيقي.

قال مسيطرًا على صوته وطريقته، وكانت لهجته تشي بنوع غريب من السرية: «هل لي أن أسألك -إذا كنت لا تظن أن سؤالي سيكون غريبًا- ما إذا كنت قد لاحظت شيئًا غير عادي بشكل عام، أي شيء غريب، منذ أن دخلت إلى المنزل؟».

أجاب د. سايلنس بلا تردد لحظة واحدة: «نعم، هناك شعور غريب بالحرارة في المكان».

صاح الآخر بدرجة لطيفة من التأهب: «آه! لقد لاحظتَ ذلك. هذه الحرارة غير القابلة للتفسير...».

كنت دهشًا لسماع إضافة الطبيب: «لكنني أرجح أن سببها

ليس في المنزل نفسه ولكن من الخارج».

نهض الكولونيل راج من مقعده والتفت ليفك خريطة مؤطرة معلقة على الحائط. وصلني انطباع بأن الحركة تمت لغرض مقصود وهو إخفاء وجهه.

ثم قال بعد لحظة، مستديرًا والخريطة في يديه: «أعتقد أن تشخيصك دقيق للغاية. ومع ذلك لا يمكنني بالطبع أن أعرف ما الذي تفكر فيه...».

هز جون سايلنس كتفيه استهجانًا بصورة معبرة وقال: «إنه مجرد انطباع. إن انتبهت إلى هذه الانطباعات، ولم تسمح لها بالتشويش عليك من خلال استنباطات العقل، غالبًا ما ستجدها دقيقة بدرجة مدهشة جدًا».

عاد الكولونيل راج إلى مقعده ووضع الخريطة على ركبتيه. بدت على وجهه إمارات التفكير العميق، عندما انغمس فجأة في قصته مرة أخرى.

قال وهو ينظر إلينا بالتناوب مباشرة في وجهينا: «لقد سمعت عن مجموعة من القصص من النوع الأكثر غرابة واستحالة؛ قصص لم أسمع بها مطلقًا. لقد تعاملت مع هذه

القصص في البداية بلا مبالاة، لكني في وقت لاحق اضطريت إلى أن أنتبه إليها بجدية، حتى إن كان ذلك بهدف الحفاظ على خدمي. لقد ظننت أن هذه القصص جعلتني أتتبع حقيقة وفاة أخي، وعلى نحو ما، ما زلت أظن ذلك».

مال إلى الأمام وسلّم الخريطة إلى د.سايلنس.

أوضح: «إنه مخطط قديم للعقار، لكنه دقيق بدرجة كافية لغرضنا، وأرجو أن تلاحظ موقع المزارع المشار إليها، خاصة تلك الموجودة بالقرب من المنزل. يُطلق على تلك المزرعة -أشار إلى بقعة بأصبعه- اسم مزرعة الإثني عشر فدان. كانت هناك على الجانب الأقرب من المنزل، والذي ربما لقي فيه أخي ورئيس الحرس حتفهما».

لقد تحدث مثل رجل أُجبر على إدراك حقائق أثارت حزنه، وكان يفضل أن يتركها دون أن يمسها؛ إنها أشياء، كان يفضل شخصيًا أن يتعامل معها بتهكم، إن أمكن. لقد كانت كلماته وقورة ومؤثرة بدرجة غريبة، وقد استمعت بقلق متزايد إلى ما يتعلق بنوع المساعدة التي سيطلبها الطبيب مني لاحقًا. بدا الأمر كما لو أنني كنت أشاهد بعض الدراما الغامضة، التي من الممكن أن يُطلب مني في أية لحظة أن ألعب دورًا فيها.

تابع الكولونيل حديثه قائلاً: «حدث الأمر منذ عشرين عامًا مضت، ولكن لسوء الحظ كانت هناك الكثير من الأقاويل عن الأمر في ذلك الوقت، وربما أنك سمعت عن هذه القضية. كان الحارس سترايد رجلًا عاطفيًا، حاد الطباع، ولكن يؤسفني القول أن أخي كان هكذا، ويبدو أن المشاجرات بينهما كانت متكررة».

قال الطبيب: «لا أتذكر ذلك الأمر. هل لي أن أسأل، ماذا كان سبب الوفاة؟». كان هناك شيء ما في صوته جعلني أنصت بعناية للرد.

«قيل أن الحارس مات مختنقًا. أثناء التحقيق، أكَّد الأطباء أن كلا الرجلين قد ماتا في نفس الوقت الذي وُجِدا فيه».

سأل جون سايلنس: «وأخيك؟»، وقد لاحظ إغفال أمره، وأنصت بعناية.

قال مضيفنا متحدثًا بصوت خفيض، باذلًا جهدًا شديدًا: «غامض بنفس القدر. لكن كانت هناك سمة واحدة محزنة، أظن أني يجب أن أذكرها. بالنسبة لأولئك الذين رأوا وجهه -وأنا لم أراه بنفسي- ومع أن سترايد كان يحمل مسدسًا لم يتم تفريغه...». تعثر وتردد مرتبكًا. مرة آخرى تخلل الشعور

بالرعب بين كلماته. إنه عالق بشدة.

قال المستمع الرئيسي بتعاطف: «نعم».

«قالوا إن وجه أخي بدا كما لو أن النار لفحته. بدا أن شيئًا ما لفحه. كان مروعًا جدًا، كما قيل لي. عثروا على الجثث ملقاة جنبًا إلى جنب، الوجوه متجهة إلى الأسفل، كلاهما كان على حافة الغابة، كما لو أنهما كانا في حالة ركض، وكانا على بعد ليس أكثر من اثني عشر ياردة من الحافة».

لم يعلق د.سايلنس. بدا أنه كان يدرس الخريطة باهتمام.

كرّر الآخر: «لم أر الوجه بنفسي». كانت طريقته تعبر نوعًا ما عن شعوره بالرهبة التي جاهد أن يبعدها عن صوته: «للأسف ظهرت تلك الرهبة على أختي وأعتقد أن حالتها الحالية ترجع بالكامل إلى الصدمة التي سببتها تلك الرهبة لأعصابها. لا يمكن استدعائها للإشارة للموضوع، وبطبيعة الحال، أنا أميل إلى الظن أن الذاكرة قد تعاملت برحمة حين أزالت الحادثة من ذهنها. لكنها تحدثت عنها في ذلك الوقت كوجه اجتاحه لهب نتج عن انفجار ما».

أفاق جون سايلنس من تأمله في الخريطة ولكن بهيئة

شخص رغب في الاستماع لا التحدث، وفي الحال تابع الكولونيل راج روايته. وقف على السجادة، وأخفى كتفاه العريضان الجزء الأكبر من رف الموقد.

«لقد ركزوا جميعًا على هذه المزرعة بشكلٍ خاص. كان ذلك متوقعًا، لأن الناس هنا يؤمنون بالخرافات مثل الفلاحين الأيرلنديين. على أنني جعلت من واحد منهم أو اثنين عبرة، لإيقاف ذلك الحديث الغبي، إلا أن ذلك لم يكن له أي تأثير، وكل أسبوع كانت تتناهى إلى آذاني روايات جديدة. قد تتخيل كيف أثَّرت عملية الاستغناء عن الخدم على الموضوع بشكل طفيف، عندما أخبرك أن الخدم طردوا أنفسهم. لم يكن خدم المنازل فقط، بل أيضًا الناس الذين عملوا في الأملاك خارج المزرعة. لقد ترك الحراس العمل، واحدًا تلو الآخر، دون أي سبب مقبول؛ فقد رفض حراس الغابات دخول الغابة كما رفض الصيادون أن يصطادوا فيها. وقد انتشرت إشاعات في جميع أنحاء الريف مفادها أن مزرعة الإثني عشر فدانًا مكانًا يجب تجنبه بالنهار أو الليل».

تابع الكولونيل، وقد تحسنت نبرة صوته وقال: «وهنا بدأ الأمر، عندما شعرت بأنني كنت مضطرًا لإجراء تحقيقات

من جانبي. لم أتمكن من القضاء على الشيء بتجاهله، لذلك جمعت القصص من المصدر الأصلي وقمت بتحليلها. بالنسبة لغابة الاثني عشر فدانًا، سترى على الخريطة أنها قريبة جدًا من المنزل. أما نهايتها السفلية، إذا نظرت، فإنها تلمس تقريبًا نهاية العشب الخلفي، كما سأريك غدًا، ويشكل نمو أشجار الصنوبر الكثيفة بها الحماية الرئيسة التي يتمتع بها المنزل من الرياح الشرقية التي تهب من البحر. في الأيام السالفة، وقبل أن يتدخل أخي في الأمر ويتغير كل شيء، كانت واحدة من أفضل الأماكن التي يمكن صيد طيور الدرج فيها بالمقاطعة بأكملها».

سأل د.سايلنس: «وما الشكل، إذا جاز لي السؤال، الذي اتخذه هذا التداخل؟».

«لا أستطيع أن أخبرك بالتفصيل لأنني لا أعرف، باستثناء أنني أفهم أن هذا كان موضوع خلافاته المتكررة مع الحارس الرئيسي؛ ولكن خلال العامين الأخيرين من حياته، عندما توقف عن السفر واستقر هنا، أبدى اهتمامًا خاصًا بهذه الغابة، ولسبب غير مفهوم، بدأ ببناء جدار حجري منخفض من حولها. لم ينته هذا الجدار أبدًا، لكنك سترى الأنقاض غدًا في وضح النهار».

قاطعه الطبيب: «وماذا عن نتيجة تحقيقاتك؛ أقصد هذه القصص؟» حرصًا على إبقائه في القضية الرئيسة.

قال ببطء: «نعم، سأتحدث عن ذلك، لكني سأتحدث عن الغابة أولًا، لأن هذه الغابة نشأت مثل الفطر بطريقة غير محددة على الإطلاق. إنها تنمو بشكل كثيف، وترتفع بعض أجزائها في المنتصف، إنها نوع من التلال حيث توجد دائرة من الصخور الكبيرة؛ أحجار الدرود القديمة كما أخبروني. وفي مكان آخر هناك بركة صغيرة. ليس ثمة شيء مميز يمكنني ذكره عنها؛ مجرد غابة صنوبر عادية للغاية. بعض الأشجار ملتوية قليلاً من جذوعها وكثيفة جدًا. ولا شيء أكثر من ذلك.

«وماذا عن القصص؟».

«حسنًا، لم يكن لأي منها علاقة بأخي المسكين أو بالحارس، كما كان من الممكن أن تتوقع، وكانت كلها غريبة؛ أعني أنها كانت فقط مجرد أشياء غريبة لا يمكن أن تستنبطها أو تتخيلها. لم يمكنني أبدًا أن أفهم كيف وصلت مثل هذه الأفكار إلى عقول الناس».

توقف مؤقتًا لإشعال سيجاره.

ثم استأنف حديثه وهو ينفث بقوة: «ليس هناك طريق ممهد بها، لكنّ الحقول المحيطة بها تُستخدم باستمرار. ثم أعلن أحد البستانيين، يقع كوخه على هذا الطريق، أنه رأى مرارًا أضواء متحركة فيها ليلًا، وأشكالاً مضيئة مثل كرات من النار تسبح وتمر بسرعة فوق قمم الأشجار وتصدر صوت هسهسة ناعم. في الواقع قال معظمهم ذلك، ورأى رجل آخر أشكالًا ترفرف داخل وخارج الأشجار، أشياءً لا هي بشر ولا حيوانات، وكلها مضاءة بشكل خافت. لم يزعم أحد أبدًا أنه رأى أشكالًا بشرية؛ كانت دائمًا أشكالًا غريبة، أشياءً ضخمة لم يتمكنوا من وصفها بشكل صحيح. كانت الغابة تُضاء كلها في بعض الأحيان، وهناك رفيق واحد -لا يزال هنا وستراه- لديه حكاية ملفقة حول رؤية نجوم ضخمة ملقاة على الأرض حول حافة الغابة على فترات منتظمة...».

قاطعه جون سايلنس بحدة وبطريقة مفاجئة جعلتني أفزع: «أي نوع من النجوم؟».

«آه، لا أعلم ذلك تمامًا؛ أظن أنه قال، أنها نجوم عادية، لكنها كانت فقط كبيرة جدًا، وكانت متوهجة، كما لو كانت الأرض متأججة. لقد كان مرتعبًا جدًا حتى أنه لم يستطع

الاقتراب وفحص الأمر، ولم يرها أبدًا منذ ذلك الحين».

انحنى صوب النيران ليزيد من اشتعالها، ورحب بوهج لهيبها، أكثر من حرارتها. كان هناك بالفعل شعور غريب بالدفء، انتشر في الغرفة وكان طاغيًا في تأثيره وغير مريح بالمرة.

ومضى يقول، منتصبًا مرة أخرى على السجادة: «بالطبع... كان كل هذا شائعًا بما يكفي؛ تلك الأضواء المرئية والأشكال التي تظهر في الليل. معظم هؤلاء الرفاق يسكرون، وقد يفسرون الخيال والرعب بينهم لسبب أي شيء تقريبًا. ولكن هناك آخرون رأوا أشياء في وضح النهار. اتخذ أحد الحطابين -وهو رجل رصين ومحترم- طريقًا مختصرًا إلى المنزل لتناول وجبة الغداء، وأقسم أنه كان هناك شيء ما كان يتتبعه طوال الغابة بأكملها؛ شيء لم يُظهر نفسه أبدًا، لكنه زاغ من شجرة إلى شجرة. دائمًا ما كان بعيدًا عن الأنظار، لكنه كان صلبًا بدرجة تكفي لجعل فروع الأشجار تتأرجح والأغصان تنكسر على الأرض. أحدث هذا ضجة -بحسب ما صرَّح- وهذا حقيقي». توقف المتحدث وضحك ضحكة قصيرة... «إنه أمر سخيف للغاية...».

أصر الطبيب: «واصل رجاءً! لأن هذه التفاصيل الصغيرة هي التي تعطيني أفضل الدلائل دائمًا».

قال: «لقد أصدر ضوضاء تشبه طقطقة الموقد. تلك كانت كلماته: مثل طقطقة النار». أنهى الجندي كلامه، مع تكرار ضحكاته القصيرة.

أبدى د. سايلنس ملاحظته بجدية: «هذا أكثر إثارة للاهتمام. من فضلك لا تغفل شيئًا».

تابع حديثه وقال: «نعم... وبعد ذلك مباشرة بدأت الحرائق؛ حرائق الغابة. بدأت الحرائق تشتعل بشكل غامض في مساحات من العشب الأبيض الجاف الذي يغطي الأجزاء المكشوفة في المزرعة. لم يرها أحد فعليًا وهي تبدأ، لكن كثيرين منهم -ومن بينهم أنا- رأيناها تزداد اشتعالًا. دائمًا ما تكون صغيرة ودائرية الشكل، وكانت تبدو للجميع وكأنها نيران مخيم لإحدى الرحلات. كان لدى رئيس الحرس الكثير من التفسيرات، من شرارات تطير خارج مداخن المنزل، إلى أشعة الشمس التي تتركز على قطرات الندى، ولكن لابد لي من الاعتراف بأن أيًا منها لم يقنعني باحتمالية حدوثه أو حتى رجحانه. أعتقد أن معظم هذه الحرائق الغامضة غريبة

ويسعدني القول أنها تأتي فقط على فترات زمنية طويلة ولا يبدو أنها تنتشر.

لكن كان لدى الحارس أيضًا قصص غريبة أخرى، حول أشياءَ يمكن التحقّق منها. لقد صرَّح بأنّه لم تدب أي حياة على الإطلاق في المزرعة بشكل تلقائي وأكثر من ذلك أنّه لم تكن هناك حياة فيها على الإطلاق. ما من طيور بَنَت عشَّها على الأشجار أو طارت في ظلّها. لقد نصب عددًا لا يحصى من الأشراك ولكنه لم يصطد قط أكثر من أرنب أو عرسة. لقد تجنّبت الحيوانات ذلك وأكثر من مرة وجد مخلوقاتٍ ميّتةً حول الحوافّ، ولم تظهر له أيّ علامات واضحة على سبب وفاتها.

إضافة إلى ذلك، أخبرني قصة غير عادية حول كلب الصيد الخاصّ به، الذي كان يطارد كائنًا ما غير مرئي في جميع أنحاء الحقل. يومًا ما، عندما كان خارج المنزل ومعه بندقيّته، أشار الكلب فجأة إلى شيء ما في الحقل عند قدميه ثم قام بمطاردته وهو يعوي كالمجنون. لقد تتبع صيده الخيالي حتى حدود الغابة ثم فعل شيئًا لم يكن يفعله من قبل. في اللحظة التي عبر فيها الحافّة -وقد كانت مظلمة هناك حتّى في وضح النهار-

بدأ القتال بأكثر ما يمكن من الجنون والرعب. لقد جعله ذلك يخشى التدخُّل، بحسب ما قال. وفي النهاية عندما عاد الكلب، مدليًا ذيلَه للأسفل لاهثًا، وجد شيئًا مثلَ الشعر الأبيض عالقًا في فكّيه وأحضره إليّ كي يريني إيّاه. أقول لك هذه التفاصيل لأن...».

أوقفه الطبيب قائلًا: «صدّقني، إنها مهمّة»، ثم سأله: «أما زال لديك هذا الشعر؟».

أوضح الكولونيل: «لقد اختفى بطريقة غريبة. كان مادة غريبة الشكل؛ شيئًا ما مثل الحرير الصخري. أرسلته كي يتمَّ تحليله من قبل الكيميائي المحليّ. ولكن إما أنّ الرجل كان على دراية بأصله، أو أنّه لم يعجب بمنظره لسبب ما، لأنّه أعاده إليّ وقال إنّه ليس حيوانيًا ولا نباتيًا ولا معدنيًا، بقدر ما استطاع فهمه، ولم يرغب في أن يفعل أيَّ شيء به. لقد احتفظت به في ورق ولكن بعد أسبوع، عندما فتحت الحزمة، لم أجده! آه... هذه القصص فقط لا تنتهي. يمكنني أن أخبركم بالمئات منها على هذه الشاكلة نفسها».

سأله جون سايلنس بجدّية: «ماذا عن خبراتك الشخصية أيّها الكولونيل راج؟». أظهر أسلوبه أكبر قدر ممكن من الاهتمام والتعاطف.

استهلّ الجنديُّ حديثَه تدريجيًا. بدا قلقًا بشكل واضح.

قال ببطء: «أظن لا شيء... لا شيء يمكنني الاعتماد عليه. أقصد أنه ليس هناك شيء لديّ الحقّ في التحدّث عنه، ربّما حتّى الآن».

ثم أغلق فمه بشدّة. بعد أن انتظر د. سايلنس قليلًا ليرى ما إذا كان سيضيف شيئًا إلى ردّه، لم يحاول الضغط عليه في هذه النقطة.

استأنف حديثه في الحال وقال: «حسنًا...» وبدا كما لو كان سيتحدّث باستخفاف، لكنه لم يجرؤ على ذلك. «استمرّ هذا النوع من الأشياء على فترات زمنية منذ ذلك الحين. بالطبع انتشرت كالنار في الهشيم، ثرثرة غامضة من هذا النوع وبدأ الناس في انتهاك حرمة المزرعة وأتوا لرؤية الغابة وأصبحوا هم أنفسهم مصدر إزعاج. ويبدو أنّ إشعارات الفخاخ للقبض على المذنبين ومدافع إطلاق النار كانت تزيد من إصرارهم؛ تخيل الآتي: (أطلق صوتًا متذمّرًا) قام بعض الباحثين الاجتماعيين المحلّيين بطلب تصريح مكتوب لأحد أعضائهم لقضاء ليلة في الغابة! أتى الحمقى الذين هم أكثر جرأة، الذين لم يطلبوا الرحيل. وأخذوا قطعًا صغيرة من لحاء الأشجار

وأعطوها للعرافين الذين اخترعوا بدورهم مجموعة أخرى من الحكايات. وهكذا، لم تكن هناك نهاية لكل هذا».

اعترض الطبيب وقال: «أعتقد تمامًا أنّ ما حدث محزن ومزعج جدًّا».

«فجأة، توقّفت الظواهر بشكل غامض كما بدأت وتلاشى الاهتمام بالأمر. توقّفت الحكايات. أصبح الناس مهتمين بشيء آخر. بدا أنّ كلّ شيء انتهى. كان هذا في يوليو الماضي. يمكنني أن أخبرك ما حدث بالضبط، لأنّي احتفظت بيوميات فيها الكثير أو القليل عما حدث».

«آه!».

«لكن الآن، في الآونة الأخيرة، أثناء الأسابيع الثلاثة الماضية، انتعش كلّ شيء بسرعة مرة أخرى بنوع من الهجوم الشديد، إن جاز التعبير. لقد أصبح الأمر لا يطاق حقًّا. يمكنك أن تتخيّل ما يعنيه ذلك، والحالة العامة للأمور، عندما أقول إنّ احتمالية المغادرة قد حدثت لي».

أشار د. سايلنس وهو يلتقط أنفاسه: «الإحراق عن عمد؟» لكن ليس بصوت منخفض لدرجة ألا يسمعه الكولونيل راج.

صاح الرجل مذهولًا: «يا له من شئ مدهش، سيدي، إنك تأخذ الكلمات من فمي!». كان ينتقل بنظراته بيني وبين الطبيب، وهو يضرب على المال في جيبه كما لو أن بعض التفسير للقوى الإلهية لصديقي تم العثور بهذه الطريقة.

قال الطبيب بهدوء: «الأمر هو أنك فقط تفكّر بوضوح شديد، وتُشكل أفكارك صورًا في ذهني قبل أن تنطق بها. إنها مجرد قراءة للأفكار».

فهمت أنّه لم يكن يقصد أن يربك ذلك الرجل الصالح، بل أن يؤثّر فيه بقدراته لضمان طاعته لاحقًا.

«يا إلهي! لم يكن لديّ أيّ فكرة...» لم ينته من الجملة، حتى انغمس مرة أخرى فجأة في روايته.

«لا بدَّ لي من الاعتراف بأنّني لم أر شيئًا بنفسي، ولكنّ قصص شهود العيان المحايدين، أكدت أنّ ثمة خطوط ضوء مثل تيارات النيران الرقيقة، تحرّكت عبر الغابة، وشوهدت في بعض الأحيان تنطلق في اتجاه ذلك المنزل كما تنطلق النيران». ثم أوضح بصوت أعلى ممّا جعلني أقفز، مشيرًا بإصبعه للخريطة، وقال: «هناك حيث تصل الحافّة الغربية للمزرعة إلى نهاية الجزء السفلي من المنزل. العشب في الجزء الخلفي من

المنزل؛ حيث ترتبط بهذه المساحات الداكنة، التي هي منبت شجيرات الغار ومنها إلى البنايات الخلفية حيث شوهدت هذه الأنوار. لقد انتقلت من الغابة إلى الشجيرات، وبهذه الطريقة وصلت إلى المنزل نفسه. لقد وصفها رجل بأنها مثل الأسهم النارية الصامتة، سريعة مثل البرق ومضيئة للغاية».

«وماذا عن هذا الدليل الذي تحدّثت عنه؟».

«لقد وصلت فعليًّا إلى جانبي المنزل. لقد تركت علامة الحروق على الجدران؛ جدران مبنى المغسلة في الطرف الآخر. ستراها غدًا». أشار إلى المكان في الخريطة ثم استقام وحدَّق حوله في الغرفة كما لو أنّه قد قال شيئًا لا يمكن لأحد أن يصدّقه وتوقّع المعارضة.

غمغم الطبيب وهو ينظر إليّ نظرة ذات دلالة: «محترقة تمامًا كما كانت الوجوه».

كرّر الكولونيل: «محترقة. نعم...» وفشل في تكملة باقي الجملة من إثارته.

ساد صمت طويل في الغرفة التي سمعت فيها صوت خرخرة الزيت في المصباح وتكتكة قطع الفحم وصوت التنفّس البطيء

لمضيفنا. تسلّلت معظم الأحاسيس غير المرحّب بها حول عمودي الفقري، وتساءلت عما إذا كان رفيقي سيحتقرني تمامًا إذا طلبت منه النوم على الأريكة في غرفته. لقد كانت الساعة الحادية عشرة. رأيت الساعة على رفّ المدفأة. لقد عبرنا الخط الفاصل وأصبحنا الآن في خضم المغامرة. أصبحت المعركة حادة بين فضولي ورهبتي. لكن حتى لو استحالت العودة إلى الوراء، أظن أن فضولي كان يمكن أن ينتصر.

سمعت صوت الكولونيل الأجش وهو يقطع ذلك الصمت في الحال: «لديّ أعداء بالطبع وطردت عددًا من الخدم...».

قاطعه جون سايلنس قائلًا باختصار: «ليس الأمر كذلك».

«ألا تظن ذلك؟ أنا سعيد ولكن... هناك بعض الأشياء التي يمكن مواجهتها والتعامل معها...».

لم يُكمل الجملة ونظر إلى أرضية الحجرة تلوح عليه إماراتُ الكآبة الشديدة، التي أظهرت لمحة سريعة عن شخصيّته. لقد أبغض هذا الرجل المقاتل واشمأزّ من فكرة أنّ هناك عدوًّا لم يستطع رؤيته ليجابهه. تحرّك في الحال وجلس على المقعد بيننا. بدر منه شيء مثل التنهيدة. لم يقل د. سايلنس شيئًا.

تكلّم كما لو أنّه كان يتحدّث إلى نفسه قائلًا: «بالطبع تجهل أختي كلَّ هذا إلى أقصى حدّ ممكن. لكن حتّى لو علمت، ربّما ستعثر على تفسيرات واقعية. أتمنّى فقط أن أتمكّن من ذلك. أنا متأكّد من وجود هؤلاء الأعداء».

ثم توقّفت المحادثة مدة قصيرة، وكان ذلك أمرًا مهمًّا جدًّا. لم يبدُ أنّه كان توقّفًا حقيقيًّا، أو صمتًا حقيقيًّا لأنّ كلا الرجلين استمرّا في التفكير بسرعة وبقوة بحيث تخيّل المرء أنّ أفكارهما قد تواصلت معًا في هواء الغرفة. لقد كنت في حالة أكثر من مجرّد شعور بإثارة غريبة لكلّ ما سمعته، لكنّ ما حفَّز أعصابي أكثر من أيّ شيء آخر، كانت الحقيقة الواضحة أنّ الطبيب كان يتعقّب الاكتشاف. أعتقد أنّه في تلك اللحظة، وجد في ذهنه حلًّا لطبيعة هذه المشكلة النفسيّة المحيرة. كان وجهه مثلَ القناع، وكان يستخدم الحدَّ الأدنى من الإيماءات والكلمات. لقد وجَّه كلَّ طاقاته إلى الداخل، وبتلك الأساليب والعمليات التي لا تُحصى التي أتقنها بمثل هذا الصبر والدراسة اللا نهائيين، تيقّنت من أنّه كان على اتصال بالفعل بالقوى الكامنة وراء هذه الظواهر الغريبة، واضعًا خططه العميقة لإظهارها؛ ومن ثم التعامل معها بفاعلية.

في الوقت نفسِه تزايد القلق عند الكولونيل راج أكثر فأكثر. من وقتٍ لآخر، كنت ألتفت إلى رفيقي، كما لو أنّه كان على وشك التحدّث ولكنّه كان دائمًا يُغيِّر رأيه في اللحظة الأخيرة. حدث مرة أن فتح الباب فجأة، ليعرف، على ما يبدو، ما إن كان هناك أيّ شخص يستمع إلى الحديث من ثقب المفتاح؛ لأنه اختفى للحظة بين البابَين، ثم سمعته يفتح الباب الخارجي. لقد وقف هناك بضع ثوانٍ وأصدر ضوضاءً كما لو كان يستنشق الهواء مثل كلب. ثم أغلق كلا البابَين بحذرٍ وعاد إلى المدفأة. كان يبدو أنّ إثارة غريبة تملّكته. من الواضح أنه كان يحاول أن يقرّر قول شيء ما وجد صعوبة في قوله. وكان جون سايلنس، كما حكمت عليه حقًا، في انتظاره بصبر لكي ينتهزَ الكولونيل فرصته وطريقته الخاصّة في قول ما يريد. في النهاية التفت وواجهنا وسوى كتفيه الضخمين وتصلّب بشكل ملحوظ.

نظر إليه د.سايلنس بنوع من العطف.

ثم أبدى ملاحظة بهدوء: «إنّ خبراتك الخاصّة تساعدني أكثر».

قال الكولونيل، متحدّثًا بصوتٍ ضعيف جدًّا: «الحقيقة هي أنّ النيران قد اندلعت في المنزل نفسه في الأسبوع الماضي. اندلعت

النيران ثلاث مرات منفصلة، وكانت كلّها في غرفة أختي».

قال الطبيب، كما لو كان هذا ما توقّع أن يسمعه تمامًا: «نعم».

أضاف الآخر ثم جلس: «إنّها شيء لا يمكن تفسيره تمامًا...».

بدأت أتفّهم شيئًا ما عن سبب إثارته. كان يدرك أخيرًا أنّ التفسير «الطبيعي» الذي تمسّك به طوال الوقت أصبح مستحيلًا، فأبغض ذلك. لقد جعله ذلك غاضبا.

مضى يقول: «لحُسن الحَظّ كانت أختي خارج الغرفة في كل مرة ولم تعرف بالأمر. لكنّي جعلتها تنام الآن في غرفة في الطابق الأرضي».

قال الطبيب باختصار: «احتياطات حكيمة». ثم سأل سؤالًا أو سؤالين. لقد بدأت الحرائق في الستائر. مرة من النافذة ومرة من الفراش. في المرة الثالثة اكتشفت الخادمة أن النار كانت قادمة من دولاب الملابس، وتبيّن أنّ ملابس الآنسة راج المعلّقة على الشماعات كانت تحترق. استمع الطبيب بانتباه، لكنّه لم يعلّق.

ثم قال فجأة: «والآن هل يمكنك أن تخبرني، ما شعورك

حول هذا الموضوع؛ ما انطباعك العام؟».

أجاب الجندي، بعد تردّد لحظة: «يبدو من الغباء قول ذلك، لكنّني أشعر تمامًا كما كان شعوري غالبًا في الخدمة العسكرية في حملاتي الهندية، كما لو كان المنزل وكلّ شي في حالة حصار، تمامًا كما لو كان هناك عدوٌّ خفيٌّ يعسكر حولنا في كمين ومكان ما»، ثم ضحك ضحكة ناعمة يشوبها القلق... «كما لو أنّ علامة الدخان التالية ستثير حالة من الذعر، ذعر مريع».

تخيّلت صورة الليل وهو يخيّم على المنزل، وأشجار الصنوبر المتشابكة التي وصفها، والتي كانت تخفي عدوًّا ما قوي. مع نظرة عابرة على الوجه والشخصية الصارمة للجندي العجوز، الذي أُجبِر مطولًا على اعترافه، فهمت شيئًا ما من كلّ ما مرّ به قبل أن يطلب مساعدة جون سايلنس.

قال الطبيب فجأة، مراقبًا وجه الآخر ليعرف تأثير كلامه على ما يبدو: «غدًا يكتمل القمر، ما لم أكن مخطئًا».

وثب الكولونيل راج وثبة لا شعورية، فأظهر وجهه، أول مرة، شحوبًا واضحًا.

بدأت شفتاه ترتجف وقال: «يا للعجب...».

ردّ عليه الآخر بهدوء: «لقد بدأت من فوري تلمّس شعاع ضوء في هذه القضية الاستثنائية. إذا كانت نظريتي صحيحة، ففي كل شهر عندما يكتمل القمر، يجب أن يشهد زيادة في نشاط الظواهر غير الطبيعية».

أجاب الكولونيل راج بقسوة: «لا أرى علاقة بين هذا وذاك، لكن لا بدَّ لي من القول إنّ مذكّراتي تدعم رأيك». لقد أظهر وجهه أكثر التعبيرات حَيرة يمكن رؤيتها على وجه بريء، لكنه أبغض هذا التأكيد الإضافي لتفسير حيرته.

كرر: «أعترف أنه لا يمكنني رؤية علاقة بين هذا وذاك».

قال الطبيب ضاحكًا ضحكته الأولى في ذلك المساء: «وكيف سترى العلاقة؟» ثم نهض وعلّق الخريطة على الحائط مرة أخرى. «أفعلُ ذلك لأنّ هذه الأشياء تمثّل دراستي الخاصّة، واسمح لي أن أضيف أنّني لم أصادف بعد مشكلة غير طبيعية لا تفسير طبيعي لها. إنّ المسألة هي فقط مجردُ سؤال عن مقدار ما يعرفه المرء ويعترف به».

نظر إليه الكولونيل راج وعلى وجهه احترام جديد وعجيب. لكنّ مشاعره سكنت. إضافة إلى ذلك، سبّبت ضحكة الطبيب وتغيُّر أسلوبه ارتياحًا للجميع، وخفّفت من حدّة الحَيرة

الشديدة التي ألمّت بنا طويلًا. نهضنا كي نُليِّن أطرافنا وتمشّينا قليلًا حول الغرفة.

قال: «أنا سعيد بوجودك هنا يا د.سايلنس، إذا سمحت لي أن أقول هذا. أنا سعيد جدًّا. والآن أخشى أن أكون قد أبقيتكما وقتًا متأخرًا جدًّا -وبنظرة خاطفة لي- لأنّه لا بدَّ وأنّكما تعبان ومستعدان للنوم». وأضاف: «لقد أخبرتكما كلّ ما يمكنني قوله. في الغد يجب أن يكون لكما مطلق الحرية التامّة لاتخاذ أي خطوات تظنان أنها ضرورية».

كانت النهاية مفاجئة ولكن طبيعية، لأنّه لم يكن هناك شيء أكثر من ذلك يمكن قوله، ولم يتحدّث أيّ من الرجلَين لمجرّد الكلام.

أضاء شموعًا في الخارج بالقاعة الباردة، وأخذنا إلى الطابق العلوي. كان المنزل خاملًا ولا يزال الجميع نيامًا. تحركنا بهدوء. رأينا ضوء القمر يسقط عبر العشب ويرمي بظلاله العميقة، من خلال النوافذ على الدرج. كانت أشجار الصنوبر الأقرب ظاهرة للعيان، من على بعد، وبدت كما لو أنها جدار أسود حصين.

جاء مضيفنا إلى غرفنا لحظة، ليتأكّد أنّه كان لدينا كلّ شيء.

أشار إلى لفافة من الحبل القويّ ملقاة بجانب النافذة، مثبّتة على الحائط عن طريق حلقة حديدية. من الواضح أنّه قد تمّ وضعها مؤخّرًا.

قال د. سايلنس مبتسمًا: «لا أظن أنّنا سنحتاجها».

أجاب مضيفنا برصانة: «لا أثق في ذلك». ثم همس، مشيرًا إلى بابه: «سأنام بالقرب منك تمامًا على بسطة الدرج، وإذا كنت تريد أيّ شيء في الليل فستعرف أين تجدني».

تمنّى لنا أحلامًا سعيدة وذهب إلى غرفته عبر، مظلّلاً الشمعة بيده ذات العضلات الكبيرة.

أوقفني جون سايلنس لحظة قبل أن أذهب.

سألته بإثارة تفوّق إجهادي: «أتدري ما ذلك؟».

قال: «نعم. أنا متأكّد تقريبًا. وأنت؟».

«ليس لديّ أيّ فكرة».

بدا عليه خيبة الأمل، ولكنّها لم تبلغ حتّى نصف خيبة الأمل التي شعرت بها.

همس: «مصر... مصر!».

2

لم يزعجني شيء في الليل؛ لا شيء باستثناء كابوس لاحقني فيه الكولونيل راج وسط خطوط رقيقة من النيران، ودائماً ما كانت شقيقته تمنعني من الفرار انطلاقا من ارتفاعها المفاجئ عن سطح الأرض، على مقعدها وهي ميّتة. لقد أيقظني نباحُ الكلاب ذات مرة قبل الفجر، لا بدَّ وأنّ ذلك قد حدث لأنّني قد رأيت إطار النافذة قبالة السماء. كان هناك وميضٌ من البرق أيضًا، على ما أظن، لأنّني كنت أتقلّب على الفراش. وكان الجوُّ دافئًا، بالنسبة لهذا الوقت من العام؛ أي في شهر أكتوبر.

لقد كان ذلك بعد الساعة الحادية عشرة، عندما اقترح مضيفنا الخروج بالأسلحة. فهمنا أنّ ذلك كان تمويهًا ضعيفًا إلى حدّ على هدفنا الحقيقي. كنت سعيدًا، بشكل شخصيّ، لوجودي في الهواء الطلق لأنّ جوَّ المنزل كان غير مريح بالمرة. اجتاحنا جميعًا شعور بكارثة توشك على الحدوث. لقد لاحق الخوف الممرات واندس في زوايا كلّ غرفة. لقد كان منزلًا مسكونًا، مسكونًا حقًّا؛ ليس انطلاقا من ظلّ ضبابي للأموات، ولكن انطلاقا من تأثير واضح، وإن كان لا يمكن التنبّؤ به؛ تأثير حيّ تمامًا وخطير. كان أهل البيت جميعًا يرتجفون من

أقلّ رائحة دخان. كنت مقتنعًا أنّ رائحة شيء مشتعل قد تشلّ جميع النزلاء. بالنسبة للخدم، فعلى جهلهم الظاهري بأوامر السيّد غير المعلنة، إلا أنّهم اشتركوا في تلك الرهبة التقليدية والشكوك البشعة المرتبطة بهذا الظهور الشرير والمتعمد لروح الخبث، والذي أظهر نوعًا من القضاء المشؤوم الذي لم يكتف بالجدران فحسب، بل أيضًا عقول الأشخاص الذين يعيشون داخلها.

لقد حالت فقط الرؤية المشرقة والبهيجة للآنسة راج العجوز -التي يتمّ دفعها حول المنزل على كرسيّها بلا ضجّة- وهي تتسامر وتومئ بخفّة لكل من قابلته، دون الشعور الكامل بالاكتئاب الذي سيطر على الأغلبية. كانت رؤيتها تشبه بريق ضوء الشمس في أعماق غابة مشؤومة، وبمجرد أن خرجنا، رأيتها على كرسيّها المتحرّك من قِبل خادمها، في ضوء الشمس في الحديقة الخلفية، وقد جذبتني ابتسامتُها المبهجة، عندما التفتت برأسها وتمنّت لنا تريضًا طيبًا.

كان صباح أكتوبر في أفضل حالاته. تلألأت أشعة الشمس المشرقة على العشب الندي وعلى الأوراق التي أصبحت حمراء ذهبية. كانت نُذُر الصقيع الأنيقة، التي لاحت فعلا في

الهواء، تبحث عن فصول دائمة من الشتاء. لقد نثرت البرودة، وعطرت الرياح القادمة من الغرب من ناحية الأراضي البور الشاسعة التي تكتسح الفراغ قبالة السماء، ولاحت كبحر أرجواني ملطّخ بشقوق صخرية رمادية متناثرة. أفسد مذاق البحر الحادّ كلّ شيء كنكهة قوية تولّدت في الفراغات، ربّما انطلاقا من طيور النورس التي صاحت وحلَّقت عاليًا في الهواء.

لكنّ مضيفنا لم يهتمّ كثيرًا بهذا الجمال البراق، ولم يكن يفكّر في أن يريَنا منظر ممتلكاته. كان ذهنه مشغولًا بشيء خلاف ذلك، وكان ذهننا مشغولًا بذلك الشأن.

قال وهو يحرّك يده: «تمتدّ تلك الأراضي البور والتلال الكئيبة والمرتفعات لمسافة ساعات متصلة. وهناك، على بعد حوالي أربعة أميال (أشار في اتجاه آخر) يقع خليج سـ—— وهو خليج بحري طويل ضحل، يسكنه عدد لا يحصى من الطيور البحرية. على الجانب الآخر من المنزل سنجد المزارع وغابات الصنوبر. أفترض أنّنا سنجد الكلاب ونذهب أولاً إلى غابة الاثني عشر فدانًا التي أخبرتك عنها الليلة الماضية. إنّها قريبة جدًّا».

وجدنا الكلاب في الإسطبل، وتذكّرت النباح الشديد

في الليل عندما قفز كلب سلوقي جميل وكلبين دانماركيين ضخمين لتحيّتنا. ظننت أنّها رفقة سلاح غريبة بينما كنّا نسير عبر الحقول. كانت المخلوقات العظيمة تثب نحونا، وتركض بجانبنا تشمشم الأرض بأنوفها.

تحدثنا قليلًا. لم يشجّع وجه جون سايلنس الكالح على الحديث. لقد أظهر التعبير الذي أعرفه جيّدًا؛ تلك النظرة المعبّرة عن القلق الجدّي الذي كان يعني أن كيانه كلّه كان مشغولًا للغاية وأنّ شيئًا يستحوذ عليه. لم أره قطّ خائفًا، لكنّه غالبًا ما كان قلِقًا. كان ذلك دائمًا ما يدفعني إلى مشاهدته، وكان قلقًا في ذلك الوقت.

تابع الكولونيل راج حديثه باقتضاب قائلًا: «سترى مبنى الغسيل في طريق العودة -لأنه هو أيضًا لم يجد إلا القليل ليقوله- علينا بقليل من الانتباه إذن».

ومع ذلك لم يبدُ أنّ كلّ جمال الصباح الناضر كان قادرًا على تبديد مشاعر الفزع التي احتشدت في عقولنا كلّما تقدّمنا.

توارى المنزل عن الأنظار، خلف مجموعة من أشجار الصنوبر في بضع دقائق قليلة جدًّا، ثم وجدنا أنفسنا على مشارف مزرعة من الصنوبريات التي تنمو بدرجة كثيفة. توقف

الكولونيل راج فجأة وأخرج الخريطة من جيبه وهو يشرح مرة آخرى باختصار جدًّا موقعها بالنسبة للمنزل. لقد أوضح كيف وصلت النيران إلى جدران مبنى الغسيل تقريبًا، مع أنّها في الوقت الحالي تتعدّى حدود رؤيتنا الفعلية، وأشار إلى نوافذ غرفة نوم أخته حيث كانت الحرائق. بدا أنّ الغرفة الفارغة تطلّ على الغابة مباشرة في ذلك الوقت. ثم عندما نظر حوله بقلق، داعيًا الكلاب أن تجنح، اقترح علينا أن ندخل المزرعة ونقوم بإجراء فحص شامل لها، وقد اعتقدنا أن الأمر يستحق. أضاف أنّه ربّما يتمّ إقناع الكلاب بمرافقتنا بعض الشيء، وأشار إلى المكان الذي جثمت فيه عند قدميه، لكنّه شكّك في ذلك وقال: «أخشى أنه لا صوت ولا سوط سيجعلها تخطو أكثر من ذلك. أعرف هذا بالتجربة».

ردّ د.سايلنس مصمّمًا وتحدّث أول مرة تقريبًا: «إذا لم يكن لديك أيّ اعتراض، فسوف نجري تحقيقنا بمفردنا؛ أنا والسيد هوبارد. سيكون ذلك أفضل».

كانت لهجته حاسمة تمامًا، وقبِل الكولونيل بأدب شديد، حتّى إنّ رجلًا أقلُّ بديهية منّي، لا بدَّ وأنه فَهمَ أنّ الكولونيل شعر براحة حقيقية.

قال الكولونيل: «بلا شكّ لديك أسبابك الصحيحة».

قال د.سايلنس: «إنّني أرغب فقط في تكوين انطباعاتي دون تأثر بأحد. قد لا تتّضح هذه الفكرة الدقيقة التي أعمل عليها بسهولة، بسبب التيّارات الفكرية لعقل آخر لديه أفكار سالفة قوية».

انضمّ الجندي للحديث ثانية، على تعبير وجهه المؤيّد والمتناقض بوضوح مع كلماته وقال: «أتفهم هذا تمامًا. إذن سأنتظر هنا مع الكلاب، وسنلقي نظرة على المغسلة في طريقنا إلى المنزل».

التفتُ مرة واحدة كي أنظر للخلف عندما تسلّقنا الجدار الحجري المنخفض الذي بناه المالك الراحل، ورأينا هيئته الباسلة المستقيمة تقف في الحقل المضاء بنور الشمس، يراقبنا بنظرة غريبة ذات دلالة على وجهه. كان هناك شيءٌ ما متناقض بالنسبة لي -ولكنّه مثيرٌ للشفقة بشكل واضح- في جهود الرجل لمواجهة كلّ التفسيرات الشاذّة للغز بازدراء، وفي الوقت نفسِه في تحقيقه الثابت المتبلّد. أومأ برأسه لي وأشار بيده مودعًا. لا تزال صورته وهو يقف تحت أشعة الشمس مع كلابه الكبيرة -يراقبنا بثبات- عالقة في ذهني حتى هذا اليوم.

تقدّم د.سايلنس في الطريق بين جذوع الأشجار الملتوية، المزروعة بالقرب منّا في صفوف محتشدة، وقد سرت في أعقابه بحذق. في اللحظة التي كنّا فيها بعيدًا عن الأنظار، التفت ووضع ببندقيته على جذور شجرة كبيرة وفعلت الشيء نفسه.

أبدى ملاحظة مبتسمًا ابتسامة عابرة: «لن نكون في حاجة إلى أسلحة القتال المرهقة هذه».

سألت في الحال وأنا أتحرق فضولًا: «إذن، فأنت متأكّد من مفتاح حلّ اللغز؟» لكنّني كنت أخاف من إظهاره لئلا يظنّ أنّني ساذَج. كانت طرقه عادية للغاية ولا تلفت الأنظار.

أجاب بلهجة جادّة: «أنا واثق من مفتاح حلّ اللغز، وأعتقد أنّنا وصلنا من فورنا في الوقت المناسب. ستعرف في الوقت المناسب. عليك أن تكتفيَ بالمتابعة والملاحظة في الوقت الحاضر... وفكّر بثبات. سوف تساعدني أفكارك».

كان صوته يتقن هذا الهدوء الذي يؤدّي بالناس إلى مواجهة الموت بنوع من السعادة والكبرياء. كنت سأتبعه إلى أي مكان في تلك اللحظة. نقلت كلماته، في الوقت نفسه، شعوراً بالجدّية الرهيبة. انتقلت لي عدوى ثقته، ولكنني أيضًا شعرت بقدر القلق الذي كان يكمن خلف الأمور في وضح النهار.

سأل: «أليس لديك أي انطباعات قوية؟ ألم يحدث شيء في الليل، على سبيل المثال؟ أليست هناك أحلام قوية؟».

أدركت أنه كان يرهف السمع لإجابتي.

«نمت في الغالب نومًا متقطعًا. لقد كنت متعباً للغاية كما تعلم، ولولا تلك السخونة الطاغية القمعية...».

قال لنفسه بدلاً من توقع إجابة: «جيّد! أنت لا تزال تلاحظ السخونة». وأضاف: «وماذا عن البرق؟ هذا البرق قد توهّج في سماء صافية، هل لاحظت ذلك؟».

أجبت صادقًا، أنّني ظننت أنّني رأيت وميضًا في لحظة من اليقظة، ثم لفت انتباهي إلى بعض الحقائق المؤكدة قبل الانتقال لموضع آخر.

«بالطبع أنت تتذكّر الإحساس بالدفء عندما وضعت الرسالة على جبينك في القطار. إنّها تلك السخونة الموجودة عامّة في المنزل في المساء الماضي، وكما ذكرت الآن، في الليل. لقد سمعتَ أيضًا قصص الكولونيل بشأن ظهور النار في هذه الغابة وفي المنزل نفسه، والطريقة التي لقي بها شقيقه وحارس الصيد حتفهما منذ عشرين عامًا مضت».

أومأت، متسائلًا عمّا يعنيه كلّ هذا.

سأل مستغربًا إلى حدّ ما: «ألم تصل لمفتاح حلّ اللغز من هذه الحقائق؟».

لقد بحثت في كلّ ركنٍ من عقلي وخيالي عن إشارة ما لمدلول كلامه، ولكنّي كنتُ مضطرًا للاعتراف بأنّني لم أفهم شيئًا حتّى الآن.

قال: «لا يهم، ستفهم لاحقًا»... وأضاف: « والآن، سنذهب عبر الغابة ونرى ما يمكننا العثور عليه».

لقد عبَّرت كلماته عن شيء ما في طريقته. كان علينا أن نُبقي أذهاننا في حالة تأهب، وندلي لبعضنا البعض بأقل تصور يخطر على بالنا. وعندما بدأنا للتو، التفت إليّ مرة أخرى بتحذير أخير.

قال بجدية: «تخيل الآن ودائمًا وبحرص شديد، من أجل سلامتك، أنك محاط بالمصادفة تحميك. تصور نفسك داخل غلاف واقي وقم بتعزيزه بأقصى درجة من الخيال. اسكب كامل قوة تفكيرك وإرادتك في ذلك. صدِّق كل ذلك بوضوح انطلاقا من هذه المغامرة... صدِّق أن مثل هذه المصادفة، التي

تكوّنت من تفكيرك وإرادتك وخيالك، تحيطك، وأن لا شيء يمكنه أن يخترقها ويهاجمك».

لقد تحدّث باقتناع درامي وحدق فيّ بثبات كما لو كان يعزّز معنى ما يقوله، ثم تقدَّم للأمام وبدأ يشقّ طريقه داخل الغابة على الأرض الخشنة المليئة بالأعشاب. وفي الوقت نفسه راعيت ما قاله بأفضل ما أستطيع، مع معرفة مدى فعالية ما أشار إليه.

اكتنفتنا الأشجار في الحال كالليل. التقت فروعها فوق رؤوسنا وتشابكت وبدأت سيقانها في الزحف على نحو أقرب، بدأت الشجيرات الصغيرة النامية تحت الأشجار الضخمة تحتشد وتتكاثر. خلعنا سراويلنا وخدشنا أيادينا، وعيوننا ممتلئة بالغبار الناعم الذي جعل الأمر أكثر صعوبة كي نتجنّب شبكة الفروع الشوكية والسيقان الزاحفة. لقد نما العشب الأبيض الخشن -الذي أمسك بأقدامنا مثل سلسلة- هنا وهناك في بقع، وكلل نتوءات التربة الخُثية البارزة مثل رؤوس بشرية، مهندمة بشكل رائع، وهاجمتنا من الأرض بخصل من الشعر الميت. تعثّرنا وتخبطنا بينها. كان الأمر صعبًا، وكان بإمكاني تصوّر أنه من المستحيل إطلاقًا إيجاد طريق عبرها في الليل.

لقد قفزنا من حزمة أعشاب إلى حزمة أخرى عندما تمكّنا من ذلك، وبدا وكأننا ننطلق بين رؤوس في ساحة المعركة، وأن هذا العشب الأبيض الميت يخفي أعين التفتت إلينا لتحدق فينا عندما مررنا بها.

تسقط أشعة الشمس هنا وهناك مشكلة بقع زاهية من الضوء الأبيض، تتألّق في المشهد لكنّها، وعلى النقيض، تجعل فقط الظلمة المحيطة بنا أعمق. لقد مررنا مرتين بأماكن دائرية داكنة في العشب حيث أكلت الحرائق بصماتها وتركت حلقة من الرماد. أشار إليها د. سايلنس ولكن دون تعليق ودون توقّف، وقد بعثت رؤيتها في نفسي إدراكًا متفرّدًا وشعورًا بالرهبة التي كانت لاحت بعيدة عن الأنظار في هذه المغامرة.

لقد كان عملًا شاقًا وصعبًا. حافظنا على قربنا بعضنا من بعض. كان الدفء غير عادي. ومع ذلك، لم يبدو أن دفءَ الجسم كان بسبب المجهود العنيف، ولكن بالأحرى كانت هناك حرارة داخلية للعقل نقلت ألسنة نيرانها إلى القلب، وجعلت العقل في حالة من التوهّج المستمرّ. عندما وجد رفيقي نفسه قد ابتعد جدًا في السير، انتظرني كي ألحق به. من الواضح أن المكان لم يمسه انسان أو حارس أو مُشجِّر أو

رياضي منذ سنوات. بينما كنّا نتقدّم ببطء، كانت أفكاري في حالة الغابة نفسها؛ مظلمة ومشوشة وممتلئة بالإنشداه، يظلّلها الخوف.

بحلول هذا الوقت كانت جميع معالم الحقل الممتد وراءنا قد توارت. لم نر بصيص واحد من الضوء. ربما كنا نتلمس طريقنا في قلب غابة ما عتيقة. ثم فجأة انتهى العليق وحزم الأعشاب ولاحت الأشجار في الأفق وبدأت الأرض تميل نحو تل كبير. لقد وصلنا إلى منتصف المزرعة وانتصبت أمامنا أحجار كاهن درويد المكسورة التي ذكرها مضيفنا. مشينا صاعدين بسهولة حتّى التلّ الصغير، بين جذوع الأشجار المتناثرة واسترحنا على إحدى الصخور المغطّاة باللبلاب فنظرنا حولنا على مساحة مفتوحة نسبيًا، ربّما كانت كبيرة مثل ساحة صغيرة في لندن.

نظرت إلى وجه رفيقي بسؤال غير معلن، بينما كنت أفكّر في الاحتفالات والأضحيات التي قد تكون قد شهدتها هذه الدائرة الفجّة من الأحجار المتراصّة منذ فجر التاريخ، لكنّه قرأ فكري وهزّ رأسه.

قال: «ليست هناك أيّ علاقة بين لغزنا وهذه الرموز الميتة،

ولكن بشيء ما أكثر قدمًا، من بلدٍ آخر تمامًا».

قلت بصوت هادئ وأنا مرتبك تمامًا: «مصر؟» متذكرًا كلماته في غرفة نومي.

أومأ رأسه. ظللت متحيرًا، لكنه بدا مهمومًا جدًّا ولم يكن هناك وقت لطرح الأسئلة لذا، وبينما كانت كلماته تدور في ذهني بشكل غير واضح، نظرت في المشهد من حولي، وكنت سعيدًا بفرصة استعادة أنفاسي وبقدر ما من السكينة. لكن لم أكّد أجد وقتًا لألحظ فيه الأشكال المتشابكة والمتعرّجة للكثير من أشجار الصنوبر القريبة منا، حتّى انحنى د.سايلنس ولمس كتفي. لقد أشار إلى أسفل المنحدر. وتّرت النظرة التي رأيتها في عينيه كلّ عصب في جسدي إلى أقصى ما يمكن.

كان هناك خطّ رفيع غير محسوس تقريبًا من الدخان الأزرق يرتفع وسط الأشجار على بعد حوالي عشرين ياردة عند سفح التلّ. لقد التف عاليًا فعاليًا، واختفى عن الأنظار بين الفروع المتشابكة فوق رؤوسنا. كان أقلّ سمكًا من الدخان الصادر من خشب محترق.

همس الطبيب بحدة: «احم نفسك! تخيّل قوقعتك التي ذكرناها سابقًا واتبعني من كثب».

نهض في الحال وتحرّك سريعًا أسفل المنحدر نحو الدخان، وتبعته خائفًا من البقاء وحدي. سمعت كيف تطحن خطواتنا أوراق شجر الصنوبر الدقيقة. شاهدت اللولب الأزرق الرقيق على كتفيه، دون أن أنحيَ بصري عنه. إنّني أعرف بالكاد كيف أصف الإحساس الغريب بالرعب الغامض الذي ألم بي، عندما رأيت تلك السلسلة من الدخان تشقّ طريقها نحو الأعلى بين الأشجار المظلمة. وكان الإحساس بالسخونة المتزايدة مع اقترابنا غريبًا. بدا الأمر كالسير نحو نار متوهّجة لكنّها غير مرئية.

عندما اقتربنا، تباطأ. ثم توقف وأشار صوب ناحية معينة، فرأيت دائرة صغيرة من العشب المحترق على الأرض. كانت حزم العشب مسودة ومحترقة بلا لهب، وتعالى من وسطها ذلك الخطّ من الدخان، وبدا شاحبًا أزرقَ ثابتًا. ثم لاحظت وجود حركة في الجو بجانبنا، كما لو كان الهواء الدافئ يرتفع ليحل محله الهواء البارد المندفع، وظل مركز الرياح الصغير ساكنًا، حتى اهتاجت بعدها الأغصان فوق رؤوسنا واهتزّت حيث اختفى الدخان. خلافًا لذلك، لم يُسمع صوت للأشجار، ولا أيّ صوت آخر. كانت الغابة ساكنة مثل المقبرة. راودتني فكرة مروعة مفادها أن مجرى سير الطبيعة كان على وشك أن يتغيّر

دون سابق إنذار، فقد تغيّر قليلاً بالفعل. ربّما تسقط السماء، أو ينهار سطح الأرض من الداخل مثل فقاعة مهشّمة. لقد وصل بالتأكيد شيء ما إلى قلعة عقلي، ممّا تسبب في هزّ عرشه.

تقدّم جون سايلنس للأمام مرة أخرى. لم أتمكّن من رؤية وجهه، ولكن اتّضح موقفه من ثباته وعضلاته وطريقة تفكيره. اتضح أنّه على استعداد لاتخاذ فعل قويّ. كنّا على بعد عشر أقدام من الدائرة السوداء عندما توقف الدخان فجأة عن التصاعد واختفي. اختفى ذيل الخطّ في الهواء أعلاه، وفي اللحظة نفسها بدا لي أنّ الإحساس بالسخونة، مرّ من على وجهي، وانتهت حركة الرياح. لقد استأنفت الروح الهادئة قيادتها ليوم أكتوبر الصافي.

تقدّمنا جنبًا إلى جن وفحصنا المكان. كان العشب يحترق، ولم تزل الأرض ساخنة. كان يبلغ قطر دائرة الأرض المحترقة من قدم إلى قدم ونصف. بدا الأمر وكأنه نزهة عادية بالقرب من المدفأة. انحنيت بحذر لكي أنظر، ولكنّني قفزت للخلف في ثانية، بصرخة لا إرادية من القلق، لأنه عندما داس الطبيب على الرماد لمنعهم من الانتشار، ارتفع صوت هسهسة من البقعة وكأنه قد ركل مخلوقًا حيًا. كانت هذه الهسهسة

مسموعة بدرجة ضعيفة في الهواء. لقد تحركت بجوارنا، بعيدًا نحو الجزء الأكثر كثافة من الغابة في اتجاه حقلنا، وفي ثانية ترك د.سايلنس النار وبدأ في التعقّب.

ثم بدأت أكثر عمليّات البحث عن المجهول غرابة كان من الممكن أن أراها.

سار بسرعة في البداية، وكان بالطبع، من الواضح تمامًا، أنّه كان يتابع شيئًا ما. ولكي يتحكّم في اتّزان رأسه، أبقى عينيه مثبّتتين على مستوى معيّن؛ أعلى بقليل من طول رجلٍ وكانت النتيجة أنه تعثّر من وعوثة الأرض. توقّف صوت الهسهسة. لم يكن هناك صوت من أيّ نوع، وما رآه ليتتبعه كان ورائي تمامًا. أعرف فقط، أنه في حالة فزع مميت من تركي وراءه، ومع فضول شديد ليرى ما يمكنه أن يراه، تبعته بأسرع ما يمكن، وحتى ذلك الحين، نجحت بصعوبة في مسايرته.

عندما تحرّكنا، مرّ الخليط المجنون لقصص الكولونيل جميعها بذهني، ملامسًا شعورًا بالضحك المذعور الذي كان محكومًا فقط بمشاهدة هذه الشخصية الجادّة والمتعجّلة أمامي. لقد ألهمني جون سايلنس في العمل بنوع من الرهبة. لقد بدا ضئيلًا للغاية بين هذه الأشجار العملاقة الملتوية، بينما

كنت أعرف أن هدفه ومعرفته كانا كبيرين، وكان يبدو مهيبًا حتّى عندما يكون في عجلة من أمره. العجيب أنّ لعبنا معًا لعبة ما غريبة ومبالغ فيها، هو حقيقة أنّنا كنّا رجلَين نرقص على شفا مأساة ما محتملة، وكان الاختلاط بين العاطفتين في ذهني غريبًا ومخيفًا في آن واحد.

لم يلتفت قطّ في مطاردته المجنونة، لكنّه واصل مسيرته بسرعة، بينما كنت ألهث خلفه مثل شخص ما في كابوس غير منطقي. وعندما ركضت، جال بخاطري أنه كان على وعي طوال الوقت -بطريقته الهادئة والداخلية- بالكثير من الأشياء التي كان يحتفظ بها عادًّا إياها سرًا يخصه. كان يراقب وينتظر ويخطط منذ اللحظة التي دخلنا فيها الغابة. انطلاقا من بعض عمليات التفكير الداخلية المركّزة والديناميكية -إن لم تكن سحرية في الواقع- كان على اتصال مباشر مع مصدر المغامرة كلّها؛ جوهر الغموض الحقيقي. كانت القوات تتحرّك صوب ذروتها في ذلك الوقت. شيء ما على وشك الحدوث؛ شيء ما مهمّ، وربّما مروّع. كلّ عصب وكل إحساس وكلّ لفتة مهمّة للشخص المستغرق في شيء ما أمامي، أعلنت عن الحقيقة تمامًا مثلما تخبر السماء والرياح ووجه الأرض الطيور بوقت الهجرة، وتحذر الحيوانات التي يتربّص بها الخطر كي تتحرّك.

وصلنا إلى سفح التل في غضون لحظات قليلة ودخلنا في وسط الشجيرات التحتية المتشابكة، التي كانت موجودة بيننا وبين ضوء الشمس في الحقل. هنا ازدادت صعوبات التنقّل السريع مئة ضعف. كان هناك عليق ينبغي تفاديه وفروع منخفضة ينبغي الانكفاء أسفلها، وجذوع أشجار لا حصر لها تغلق المسار وتجعل عبوره بشكل مباشر مستحيلاً. ومع ذلك لم يبد قطّ على د.سايلنس الارتباك أو التردّد. مضى قُدُمًا، انكفأ، قفز، تفادى، أحنى رأسه، ولكن في الاتجاه الرئيس نفسه، متتبّعًا دربًا واضحًا. لقد تعثّرت وسقطت مرتين، وفي كلتا المرتين، عندما أنهضت نفسي مرة أخرى، رأيته يسير أمامي، يتقدّم مثل كلب يركض خلف فريسته. في بعض الأحيان كان يتوقّف ويشير صوب ناحية ما مثل كلب. كانت إشارة بشرية، إشارة نفسية... وفي كلّ مرة توقّف فيها للإشارة، سمعت تلك الهسهسة الخافتة للغاية في الهواء حولنا. تملّكته غريزة العرّاف المعصوم من الخطأ، ولم يرتكب خطأً.

لحقت به فجأة، واكتشفت أننا وقفنا على حافّة البركة الضحلة التي ذكرها الكولونيل راج في روايته في الليلة السابقة. كانت طويلة وضيقة، مملوءة بالماء البني الداكن، حيث كانت الأشجار تنعكس بخفوت. لم تكن هناك موجة تحرك سطحه.

صرخ عندما نهضت: «احذر...! سوف يعبر. من المحتم أن يُظهر نفسه. الماء هو عدوه الطبيعي وسنرى الاتجاه».

وحتّى عندما تكلم، كان هناك خطٌّ رفيعٌ مثل مسار عنكبوت مائي، انطلق بسرعة عبر السطح اللامع؛ كان هناك طيف من البخار في الهواء أعلاه. سرعان ما أصبحت على بيّنة من رائحة الاحتراق.

التف د. سايلنس وألقى بنظرة خاطفة عليّ، جعلتني أفكّر في البرق. ارتعش جسدي كلّه.

صاح مهتاجًا: «أسرع! إلى الطريق مرة أخرى! يجب أن نركض. إنّها ذاهبة إلى المنزل!».

لقد أرعبني للغاية الانزعاج البادي في صوته. توغّلت حول الضفاف الزلقة دون خطوة خاطئة، وتعقّبته مرة أخرى في بحر الشجيرات وجذوع الأشجار. كنّا في ذلك الوقت في خضم الحزام الكثيف للغاية الذي كان يحيط بالحافة الخارجية للمزرعة، وكان الحقل قريبًا، ومع ذلك كانت فروع الشجر المتشابكة مظلمة، لدرجة أنه مرَّ بعض الوقت قبل أن تلوح الأشعة الأولى من ضوء الشمس الأبيض. ركض الطبيب متعرجًا في ذلك الوقت. لقد كان يتتبع شيئًا ما، يتملص

ويتضاعف بشكل عجيب جدًا، ومع ذلك فقد بدأ في التحرك ببطء أكثر من السابق كما تخيلت.

صاح: «بسرعة! سنفقدها في الضوء!».

لم أرى أو أسمع شيئًا، ولم أدرك أيّ اقتراح بشأن الطريق؛ ومع ذلك، فإنّ هذا الرجل الذي كان يسترشد بتكهّن ما داخلي، والذي بدا أنه معصومٌ من الخطأ، لم يقم بأيّ انعطافات خاطئة، مع أنّ كيفية نجاحه في تجنب التصادم السريع بالأشجار، ظلّت لغزًا بالنسبة لي منذ ذلك الحين. بعد ذلك، ومع الاندفاع المفاجئ، وجدنا أنفسنا على حافّة الغابة مع الحقل المفتوح الممتدّ تحت أشعة الشمس الساطعة أمام أعيننا.

سمعته يصرخ، وكانت هناك نبرة من الألم في صوته: «لقد تأخّرنا كثيرًا! انتهى الأمر... يا إلهي! إنّها تتّجه إلى المنزل!».

رأيت الكولونيل واقفًا في الحقل مع كلابه حيث تركناه. كان ينحني بشكل مضاعف، وهو ينظر إلى الغابة حيث سمعنا نركض فاستقام كما لو كان سوطًا منحنيًا قد أُطلِق. اندفع جون سايلنس، يدعوه أن يتتبعه.

سمعتُه يصرخ وهو يركض: «سنفقد الطريق في الضوء.

بسرعة! قد نصل إلى هناك في الوقت المناسب!».

هل يمكنني أن أنسى هذا الاندفاع الجامح عبر الحقل المفتوح والكلاب في أعقابنا، تقفز وتنبح، والكولونيل المسن خلفنا يركض كما لو كان ذلك من أجل الحفاظ على حياته؟ على أنه لم يكن لدي سوى أفكار غامضة حول معنى كل هذا، إلا أنّني تقدّمت بأقصى ما أستطيع، ولأنّني كنت أصغر الثلاثة، فقد وصلت إلى المنزل أولًا بسهولة. توقّفت لاهثًا والتفت في انتظار الآخرين. لكنّني عندما التفت، رأيت شيئًا ما يتحرّك على مسافة صغيرة، وفي تلك اللحظة أُقسم أنّني مررت بأكبر صدمة ساحقة متفرّدة في حياتي من هول المفاجأة والرعب.

لأن الباب الأمامي كان مفتوحًا ولأن محيط المنزل ضيقًا، تمكّنت من الرؤية انطلاقا من القاعة المؤدّية إلى غرفة الطعام التي خلفها، ومنها إلى الحديقة الخلفية. هناك رأيت مشهدًا أرجّح أنه للآنسة راج وهي تركض. كان من الواضح أنّها رأتني، حتّى من تلك المسافة، وكانت متجهة نحوي وهي تركض بطريقة محمومة لامرأة تعاني من الرعب. لقد تعافت وتمكنت من استخدام ساقيها.

كان وجهها شاحبًا، كما لو أنه كان شحوب الموت، لكنّ

التعبير العامّ كان مضحكًا لأنّ فمَها كان فاغرًا وعيناها، اللتان كانتا دائمًا لامعتين، أشرقتا بابتهاج شديد، بدا مثل ابتهاج طفل، ومع ذلك كان مروعًا بشكل استثنائي. في تلك اللحظة بالذات، عندما فرّت بجواري متّجهة إلى ذراعي أخيها، شممت رائحة شيء مشتعل بشكل واضح. حتّى يومنا هذا، فإنّ رائحة الدخان والنار تسبّب لي ما يشبه المرض لأنّها تذكّرني بما قد رأيته.

أتت خادمتها المرتعبة بسرعة، وكانت قادرة على التحدث، الأمر الذي لم يكن بإمكان سيدتها فعله، لكن وجهها لم يبدُ فقط أبيض، بل لاحت عليه إمارات الهلع كاملة.

كانت تلهث وتصرخ ردًا على أسئلة الكولونيل المحيرة: «لقد كنا في الأسفل بجوار الشجيرات في الشمس. كنت أدفع كرسيّها المتحرّك كالمعتاد عندما صرخت وقفزت، لا أعلم ماذا حدث تمامًا؛ كنت خائفة جدًّا حتى إنّني لم أستطع أن أراها... يا إلهي! لقد قفزت من على الكرسي وركضت! كان هناك هبة من الهواء الساخن آتية من الغابة، فأخفت وجهها وقفزت. لم تصدر صوتًا أو تصرخ. لقد ركضت فقط».

بعد بضع دقائق وصل رعب الكابوس كلّه إلى النقطة الحرجة. بينما كنت واقفًا في القاعة محرومًا من الكلام

والحركة مؤقّتًا، في حين كان الطبيب والكولونيل والخادمة في منتصف الدرج يساعدون المرأة المغشي عليها كي تصل إلى غرفتها المنعزلة، وكانوا جميعًا يشكلون مجموعة من الأشخاص المرتبكين المكتئبين، بدا أن هناك صوت ورائي. التفت فرأيت رئيس الخدم، الذي كان وجهه يتقطر عرقًا وعيناه تجحظان من رأسه.

صاح: «مبنى الغسيل يحترق! لقد نشبت فيه النار!».

أتذكر تعبيره الغريب «نشبت»، وأردت أن أضحك، لكني وجدت أن وجهي كان جامدًا متجهمًا.

صاح بصوت ضعيف من الرعب وهو يركض في دوائر: «الشيطان حولنا مرة أخرى، ساعدني يا إلهي!».

بعد ذلك انتشرت المجموعة الواقفة على السلالم على صوت إحدى الطلقات، ونزل الكولونيل ود. سايلنس ثلاث درجات في مرة واحدة، تاركين السيدة راج البائسة في عناية خادمتها الخاصّة.

وبينا خرجنا عبر الحديقة الأمامية في الجانب الآخر من المنزل، وكان الكولونيل في المقدّمة وأنا و د.سايلنس في

أعقابه، وكان رئيس الخدم المهيب يلهث في المؤخّرة وهو يتلعثم أكثر فأكثر في خطابه إلى الله والشيطان. في اللحظة التي مررنا فيها على الإسطبلات ورأينا مبنى الغسيل، رأينا منظرًا كريهًا؛ كمّية كبيرة من الدخان، تتدفق من النوافذ الضيقة، والخادمات الخائفات والسائسون يركضون هنا وهناك وهم يصرخون.

سرعان ما أدّى وصول السيد إلى استعادة النظام، فهذا الجندي المتقاعد، والذي قد يكون مفكّرًا بائسًا، هو رجل قادر على العمل، وكان مالكًا لزمام الأمور من البداية. أصدر أوامره، وكأنّه ضابط حازم، وقبل أن أدرك ذلك، تدفّقت الدلاء، وتشكّلت مجموعة من الرجال والنساء بين المبنى والمضخّة الثابتة.

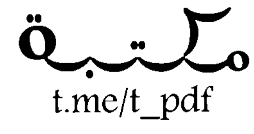
سمعت جون سايلنس يصرخ: «في الداخل»... وتبعه الكولونيل من خلال الباب، عندما كنت سريعًا بما فيه الكفاية لسماع صوته وهو يقول: «الدخان هو الجزء الأسوأ منه. أظن أنه ليس هناك نار».

كان ذلك صحيحًا تمامًا، فلم يكن هناك حريق. كانت المساحة الداخلية ممتلئة بالدخان، لكن تم تطهيرها بسرعة

ولم يتمّ استخدام دلو واحد على الأرض أو الجدران. كان الهواء خانقًا والسخونة رهيبة.

صاح الكولونيل وهو يسعل: «لا يوجد شيء ثمين ليحترق هنا؛ كل شيء من الحجر». لكن الطبيب كان يشير إلى الأغطية الخشبية للمرجل الكبير الذي تُغسل فيه الملابس. رأينا أنها كانت محترقة ومتفحمة. وعندما ألقينا بنصف دلو من الماء عليها، هسهست الأحجار المحترقة وأصدرت أزيزًا وبعثت بسحب بخارية. انتهى الأمر مع الدخان المتبقي، من خلال الباب والنوافذ المفتوحة ووقف ثلاثتنا هناك على الأرضية الحجرية، محدقين في المكان بتعجب؛ كلٌّ بطريقته الخاصة، كيف يمكن تفسير الحرائق أو الدخان على أساس قانون الطبيعة. كان كل منهما صامتًا، وكنت أنا كذلك من عدم القدرة الكاملة والارتباك، أما صمت الكولونيل فكان بسبب جرأته الهادئة، التي يواجه بها كل شيء مع أنه يتحدث قليلًا، أما صمت جون سايلنس فكان بسبب التنازع العقلي المكثف مع هذا التجلي الأخير لمشكلة عميقة تتطلب تركيز الفكر بدلاً من التركيز على كلمات بعينها.

لم يكن هناك شيء ليقال حقًا. كانت الحقائق واضحة تمامًا.



كان الكولونيل راج هو أول من نطق.

قال بإيجاز: «أختي»... ثم رحل. سمعته في الساحة وهو يرسل الخدم المرعوبين لأعمالهم بصوت حازم للغاية، ويوبخ أحدهم بحدة لتسبّبه في مثل هذا الحريق الكبير وترك المداخن لتصبح أكثر سخونة، ولم يصدق الردَّ المتلعثم، بأنه لم يتم إشعال أي نيران هناك لعدة أيام. ثم أرسل سائسًا على ظهر خيل لطلب الطبيب المحلي.

التفت د.سايلنس ونظر إليّ. إن السيطرة المطلقة التي لديه، ليست فقط على التعبير الخارجي عن المشاعر -عن طريق الإيماءات، وتغيير اللون، وضوء العيون... إلخ- ولكن أيضًا، كما كنت أعرف جيدًا، على ولادتها في قلبه؛ الوجه الشبيه بقناع الموتى الذي كان يمكن أن يتقلّده إذا رغب، جعل من الصعب للغاية أن نعرف في أي لحظة، ما الذي كان يشغل وعيه الداخلي. لكن في ذلك الوقت، عندما التفت ونظر إليَّ، لم يكن تعبير أبي الهول موجودًا، بل بالأحرى الوجه الصارم المنتصر لرجلٍ قد سبر أغوار مشكلة خطيرة ومعقّدة، وتبيّن طريقه إلى نصرٍ مبين.

سأل بهدوء: «الآن... هل خمّنت الأمر؟». كما لو أنّها

أبسط مسألة في العالم، والجهل بها أمر مستحيلًا.

لم أستطع إلا أن أحدق بغباء وأظل صامتًا. ألقى نظرة خاطفة على أغطية المرجل المتفحمة، ورسم بإصبعه شكلًا في الهواء. لكنني كنت مستثارًا جدًا، شاعرًا بالخزي الشديد، أو لا زلت في حالة ذهول شديدة، ربما لأرى ما هي خططه، أو ما الذي قصد أن ينقله لي. لم يمكنني إلا الاستمرار في التحديق، هازًا رأسي المتحيرة.

صاح قائلاً: «مخلوق ناري. إنه مخلوق ناري من النوع الأقوى والأكثر خبثًا...».

دوى صوت الكولونيل راج وراءنا، بعد أن عاد فجأة وسمع: «ماذا؟».

كرر د. سايلنس بأكثر هدوء: «إنه مخلوق ناري»، لكن مع وجود نبرة انتصار في صوته، لم يستطع تحاشيها، «إنه مخلوق ناري غاضب».

أخيرًا بدأ عقلي يستنير. لكن الكولونيل -الذي لم يسمع قطّ بالمصطلح، وكان يشعر إلى جانب ذلك أنه كان يعمل مع رجل عادي إلى حدٍّ بعيد، مع كلّ هذا الغموض الذي لم يكن

يعرف كيف يواجهه- بدا مصعوقًا إلى أقصى درجة ممكنة. استمرّ يزمزم ويتلعثم ويحدّق.

بدأ وقال: «ولماذا؟»، وكانت هناك رغبة ضارية في العثور على شيء ما مرئي يمكنه محاربته... «لماذا، باسم جميع الحرائق...؟». ثم توقّف عندما تقدّم جون سايلنس وأخذه من ذراعه.

قال بلطف: «هنا يا عزيزي الكولونيل راج وضعت يدك لب الأمر كلّه. أنت تسأل، لماذا. هذه هي مشكلتنا بالتحديد». تشبث نظره بعيون الجندي بحزم... «وهذا أيضًا ما سنعرفه قريبًا على ما أظن. تعالوا ودعونا نتحدث عن خطة عمل، ربما في تلك الغرفة ذات الأبواب المزدوجة».

هدأته قليلاً كلمة «عمل» ووجَّهنا إلى الطريق، دون مزيد من الحديث، عائدًا إلى المنزل، وأسفل الممر الحجري الطويل المؤدي إلى الغرفة حيث سمعنا قصصه في ليلة وصولنا. فهمت من نظرة الطبيب أنّ وجودي لن يجعل المقابلة أسهل بالنسبة لمضيفنا، فصعدت مرتجفًا إلى الطابق العلوي إلى غرفتي الخاصّة.

لكنّني استحضرت ذكريات الساعة الأخيرة الحيّة في عزلة

غرفتي بلا رحمة، حتى إنّي بدأت أشعر أنّي يجب ألا أنسى أبدًا طوال حياتي كلها الصورة المريعة للآنسة راج، وهي تركض -ذلك الكائن البشري المروع- مطاردة السر الغامض غير البشري في الغابة، وكنت غير آسف عندما طرق خادم على بابي وقال إن الكولونيل راج سيكون سعيدًا إذا انضممت إليهم في غرفة التدخين الصغيرة.

قال العقيد راج عندما دخلت الغرفة: «أظن أنه من الأفضل أن تكون حاضرًا». أخذت الكرسي وظهري نحو النافذة. تبقت ساعة قبل الغداء، مع أنني أتصوّر أنّ التقسيمات المعتادة في اليوم لا تكاد تجد مكانًا في أفكار أيّ واحد منّا.

يمكنني أن أصف جوَّ الغرفة حينها بأنه مثير للغاية. كان الكولونيل يملؤه الشعور الإيجابي. وقف وظهره نحو المدفأة، وفي إصبعه سيجار أسود غير مشتعل، ووجهه محتقن بالدم، وكان من الواضح أنه مستثار وفي تمام الاستعداد لفعل شيء ما. لقد كره هذا اللغز. كان ذلك مؤذٍ بالنسبة لطبيعته، وكان يتوق إلى مواجهة شيء ما وجهًا لوجه، شيء ما يمكنه تحديده ومقاومته. لاحظت في الحال أنّ د.سايلنس كان جالسًا أمام خريطة العقار التي وضعت على منضدة. عرفت انطلاقا من

تعبيره حالة عقله. لقد كان مشغولًا بشكل كلّي، وكان يعرف ذلك وسعيدًا به، وكان يعمل تحت ضغط شديد. لقد أدرك وجودي بجفن مرفوع وأخبرني بريق عينه المتناقض مع سكونه ورباطة جأشه بالكثير.

قال دون أن ينظر عاليًا: «كنت على وشك أن أشرح لمضيفنا باختصار، ما يبدو لي في كل هذا الموضوع، عندما طلب منك الانضمام إلينا حتى نتمكّن من العمل معًا». وبينما أُظهر استجابتي، كنت أتساءل ما هي طبيعة هذا الحديث الهادئ لهذا الرجل المتحفظ الملئ بالقوة، التي كانت شخصيته مملوءة بالغرابة والشجاعة؟ بدا أنه يلهمنا بثقته الخاصة كما لو أنه إشعاع.

تابع بشكل خطير، ملتفتًا إلى الجندي: «إن السيد هوبارد يعرف بعض أساليبي، وفي أكثر من موقف مثير للاهتمام، أثبت دعمه لي. ما نريده الآن (وهنا نهض فجأة وأخذ مكانه على السجادة بجانب الكولونيل، ونظر إليه بثبات) هم رجال لديهم القدرة على ضبط النفس، واثقين من أنفسهم، يمكن أن تُخرج عقولهم قوى إيجابية في اللحظة الحرجة، بدلاً من التيارات المترددة وغير المؤكدة بسبب المشاعر السلبية؛ كالخوف على سبيل المثال».

نظر إلى كل واحد منا على حدة. حرك الكولونيل راج قدميه بعيدًا عن بعضهما وتأهب لفعل شئ، فشعرت بالذنب، لكني لم أقل شيئًا، مدركًا أن رصيدي الكامن من الشجاعة كان يندفع بتأن إلى الأمام. لقد كان يديرني مثل الساعة.

استمر قائدنا: «لذلك فعندما يحين الوقت، سيسهم كل منا بنصيبه من القوة ويكفل النجاح لخطتي».

قال الكولونيل بوضوح: «لست خائفًا من أي شيء يمكنني رؤيته».

سمعت نفسي أقول، كما لو أنه بشكل تلقائي: «أنا مستعد لأي شيء»، ثم أضفت، شاعرًا بأن هذا التصريح غير كافٍ: «مستعد لكل شيء».

ترك د.سايلنس السجادة وبدأ يتمشي ذهابًا وإيابًا حول الغرفة، ويداه غاطستان في جيوب سترة الصيد. لقد تدفقت منه حيوية هائلة. لم أحوِّل عيني أبدًا عن الشخصية الصغيرة المتحركة؛ نعم صغيرة، ومع ذلك جعلني ذلك أفكر بطريقة ما في عملاق يخطط لتدمير كل العوالم. وكان أسلوبه لطيفًا، كما هو الحال دائمًا، وفي الغالب مريحًا، وكان يتلفظ كلماته بهدوء دون تشديد أو انفعال. كان معظم ما قاله موجهًا إلى الكولونيل،

ولكن ليس بشكل واضح تمامًا.

قال بهدوء، وهو يخطو جيئة وذهوبًا أسفل خزانة الكتب في نهاية الغرفة: «يعود عنف هذا الهجوم المفاجئ، بطبيعة الحال، إلى حقيقة أن القمر قد اكتمل في هذه الليلة»، وهنا ألقى بنظره عليّ للحظة... «وإلى حدٍ ما إلى حقيقة أننا جميعًا نركز على هذه المسألة عن عمد. لقد أثارها تفكيرنا وتحقيقنا، وجعلها نشطة بشكل غير عادي. أقصد أن القوة الذكية وراء هذه المظاهر أدركت أن شخصًا ما منشغل بشأن تدميرها. الآن فهي في موقف دفاعي، بالإضافة إلى أنها عدوانية».

قال الجندي غاضبًا جدًا: «لكن ما طبيعة ذلك؟ بحق كل ما هو مروع، ما هذا المخلوق الناري؟».

أجاب د. سايلنس ملتفتًا إليه، ولكن دون انزعاج من المقاطعة: «لا أستطيع أن أعطيك في هذه اللحظة محاضرة عن طبيعة وتاريخ السحر، لكن يمكنني فقط القول أن ثمة قوة بدائية فعالة كامنة في العناصر، سواء كانت الأرض أو الهواء أو الماء أو النار؛ إنها غير شخصية في طبيعتها الأساسية، ولكن يمكن أن تكون مركزة ومجسدة، وملهمة، بواسطة أولئك الذين يعرفون كيف يفعلون بها ذلك؛ بواسطة السحرة، إن صح

التعبير، لأغراض معينة تخصهم، بنفس الطريقة التي يمكن بها تسخير البخار والكهرباء من قبل الشخص العملي في هذا القرن.

يمكن لهذه الطاقات الأولية العمياء أن تحقق القليل وحدها، ولكن عندما تتحكم فيها وتوجهها الارداة القوية لمعالج قوي قد تصبح فعالة بقوة لأجل الخير أو الشر. إنها أساس كل السحر والدافع وراءه، وهي ما تشكل السحر «الأسود» أو «الأبيض»؛ يمكنها أن تجلب اللعنات أو البركات، لأنّ اللعنة ليست شيئًا أكثر من مجرّد فكرة الإرادة العنيفة السرمدية. في مثل هذه الحالات، فإنّ الوعي الذي يوجِّه إرادة العقل، الذي يستخدم تلك القوة البدائية للعناصر يكمن دائمًا وراء الظواهر...».

قاطعه الكولونيل مذعورًا: «أنت تظن أن أخي...!».

«لا علاقة له بأيّ شيء بشكل مباشر. إن المخلوق الناري -الذي يعذّبك أنت وعائلتك- في مهمته قبل أن توجد أنت أو عائلتك أو أجدادك منذ وقت طويل، أو حتّى الأمة التي تنتمي إليها -وما لم أكن مخطئًا- حتى قبل الوجود. سنتحدّث عن ذلك بعد قليل، بعد التجربة التي أقترح القيام بها. سنكون على بيّنة من الأمر. في الوقت الحالي، أستطيع فقط أن أقول إنّه

ينبغي لنا أن نتعامل الآن، ليس فقط مع ظاهرة مهاجمة النار، ولكن مع الذكاء الغاضب والانتقامي الذي يُوجِّهها من وراء الكواليس... الغاضب والانتقامي». كرّر هذه الكلمات.

«هذا يفسر...» استأنف الكولونيل راج حديثه، باحثًا بغيظ عن الكلمات التي لم يستطع العثور عليها بسرعة كافية.

قال جون سايلنس بإيماءة لكبحه: «الكثير».

توقّف لحظة في منتصف سيره وخيَّم صمتٌ عميق على الغرفة الصغيرة. بدا ضوء الشمس أقلّ سطوعًا من النوافذ. كان الصفّ الطويل من التلال المظلمة أقلّ حميمية، ممّا جعلني أفكّر في موجة شاسعة تجتاح السماء وتوشك على الانهيار واكتساحنا. لقد تسلّل شيء ما هائل إلى العالم حولنا. لأنّه بلا شكّ، كان هناك تفكير مقلق، يحمل الخوف بالإضافة للرعب بسبب الصورة التي استحضرتها كلماته؛ فكرة أنّ هناك إرادة بشرية تصل إلى سيطرة كاملة، شريرة ومدمّرة، عبر العصور، لضرب الأحياء وإصابة الأبرياء.

انفجر الجنديّ، لعدم قدرته على كبح نفسه مدّة أطول من الصمت وقال: «لكن ما هدفُها؟ لماذا تأتي من تلك المزرعة؟ ولماذا يجب أن تهاجمنا، أو تهاجم أي واحد على وجه

الخصوص؟» انهال بالأسئلة كتيّارٍ جارف.

أجاب الطبيب بهدوء بعد أن سمح له بالاستمرار في الكلام عدة دقائق: «ستعرف كلّ شيء في الوقت المناسب، لكن يجب أن أكتشف أولاً بشكل إيجابي، ما أو من الذي يوجه هذا المخلوق الناري بعينه. للقيام بذلك، علينا أولاً أن -تحدث بروية- نسعى إلى تقييده ومحاولة رؤيته وأن نحدَّ مجال نشاطه في شكل معيّن».

صاح الجنديّ: «يا إله السموات!»، وبدت دهشتُه صادقة.

واصل الآخر حديثه بهدوء قائلًا: «أجل. عندما نفعل ذلك أظن أنه يمكننا أن نخرجه من هذا الهدف الذي يربطه، وأن نردّه إلى حالته الطبيعية من الحريق الكامن، وأيضًا -أخفض صوته بشكل ملموس- اكتشاف وجه وشكل الكائن الذي يلهمه».

صاح الكولونيل: «يمسك الرجل بسلاحه...!»، وبدأ في فهم شيء ما، ومال إلى الأمام حتى لا يفوته مقطع واحد.

«أقصد أنه بمثابة ملجأ أخير، قبل أن يعود إلى رحم النيران المحتملة، من المحتمل أن ينتحلَ وجه وشخص من يوجهه، من قبل رجل على علم بالسحر والذي قيّده بتعاويذه في بادئ

الأمر وأرسله من ذلك الوقت فصاعدًا في مهمّتة عبر القرون».

جلس الجنديّ وهو يلهث في وجهه. كان يتنفّس بصعوبة؛ لكنّه الصوت كان خافتًا جدًّا.

«وما اقتراحكم بشأن جعله مرئيًا؟ كيف يمكن السيطرة عليه والحدّ منه؟ ماذا تعني يا د. سايلنس؟».

«بتزويده بالموادّ اللازمة للتشكيل. انطلاقا من عملية التجسيم فقط. بمجرّد تحديده بالأبعاد، سيصبح بطيئًا وثقيلًا ومرئيًا. يمكننا تبديدُه بعد ذلك. كما ترى فإنّ النار غير المرئية، خطيرة ولا يمكن التنبّؤ بها؛ محبوسة في شكل، قد يمكننا التحكّم فيه. علينا أن نظهره حتّى تتم إبادته».

سألناه في الوقت نفسه: «وماذا عن هذه المادة؟»، مع أنّني أظن أنّني قد خمّنت بالفعل.

جاء الردّ الهادئ: «ليست لطيفة، لكنّها فعّالة. إنّها رائحة دم مهرق حديثًا».

صاح الكولونيل راج، ناهضًا من على كرسيّه بصوت كالانفجار: «ليس دم انسان!». ظننت أن عينيه كانتا ستخرجان من محجريهما.

استرخى وجه الدكتور سايلنس قسرًا، وجلبت ضحكته العفوية القصيرة شعورًا بالارتياح على أنّه كان برهة فقط.

أوضح قائلًا: «آمل ألا تأتي مرة آخرى أبدًا أيام الأضحيات البشرية. سيفي دم الحيوان بالغرض، ويمكننا أن نجعلَ هذه التجربة ممتعة قدر الإمكان. يجب فقط أن يكون الدم مهرق حديثًا وقويًّا، انطلاقا من الانبعاثات الحيوية التي تجذب هذه النوعية الغريبة من المخلوق العنصري. ربّما، ربما إذا كان خنزير ما في الجوار جاهزًا للذبح...».

استدار لإخفاء ابتسامة، لكن لمسة الكوميديا العابرة، لم تجد أيّ صدى في ذهن مضيفِنا، الذي لم يفهم كيف يتغيّر سريعًا من عاطفة ما إلى أخرى. من الواضح أنّه كان يناقش أشياء كثيرة بشكل مرهق في عقله الصادق. لكن في النهاية، انتصرت جدّية الطبيب وتجرّده العلميّ، والذي كان تأثيره عليه كبيرًا بالفعل. لقد تطلّع في ذلك الوقت إلى مزيد من الهدوء، ولاحظ أنّه ربّما يمكن تسوية الأمر عن قريب.

استمرّ د.سايلنس في حديثه قائلاً: «هناك طرق أخرى جذّابة لتفسير الأمر لكنّها تتطلّب وقتًا واستعدادًا، وقد ذهبت الأمور إلى حدٍ بعيد للغاية في رأيي، حتى أننا لم نستطع أن

نقر بالتأخير. هذه العملية لن تسبّب لك أيّ ضائقة؛ نجلس حول الوعاء وننتظر النتائج. لا شيء أكثر من ذلك. إنّ انبعاثات الدم، التي هي أول تجسيد للسائل العام، كما يقول ليفي، تقوم بإعداد المواد التي تستطيع مخلوقات الحياة الروحية أن تتّخذ لنفسها منها مظهرًا مؤقّتًا. إنّ العملية قديمة وتكمن في جذور كلّ أضحيات الدم. لقد كانت معروفة لكهنة بعل، وهي معروفة لدى راقصي الصوفية المعاصرين الذين كرّسوا أنفسهم لإنتاج خيالات مجرّدة ترقص معهم. أقل المنجّمين موهبة يمكنه أن يخبرك أنّ النماذج التي تُرى بالقرب من المجازر، أو التي تحلّق فوق ساحات القتال المهجورة... حسنًا -إنها فقط تتجاوز كل وصف. لا أقصد -أضاف ملاحظًا التململ الضجر للمضيف- أن أي شيء في مبنى الغسيل، يبدو بالضرورة مصدرًا للخوف، لأن هذه الحالة تبدو هينة نسبيًا، إنها فقط الطابع الانتقامي للتوجيه الذكي لهذا المخلوق الناري، الذي يسبّب القلق ويعرّض الشخصية للخطر».

قال الكولونيل، مع اندفاع مفاجئ في الكلمات، آخذًا نفسًا عميقًا، كما لو كان يتحدّث عن أشياء بغيضة بالنسبة له: «يا لَلغرابة! أثناء سنواتي التي قضيتها بين قبائل التلّ في شمال الهند، صادفت بشكل شخصي، حالات من أضحيات الدم

لآلهة بعينها، توقّفت فجأة وتوقّفت كلّ أنواع الكوارث التي كانت تحدث حتّى تمّ استئنافها. اندلعت النيران في الأكواخ، حتّى في ملابس السكّان الأصليين و... وأنا أعترف أنني قرأت، في أثناء دراستي -أومأ تجاه كتبه وطاولته المحملة بالأثقال- عن الإيزيديين السوريين الذين كانوا يستحضرون الأرواح عن طريق قطع أجسادهم بالسكاكين أثناء رقصاتهم الدوارة؛ كرات ضخمة من النار تحولت إلى أشكال وحشية ورهيبة، وأتذكر حكاية في مكان ما أيضًا عن كيف أن الأشكال الهزيلة والملامح الشاحبة للأشباح، التي ظهرت للإمبراطور جوليان، زُعم أنها كانت تخص شخصيات خالدة حقيقية، طلبت منه تكرار أضحيات الدم من أجل الأبخرة التي كانوا يتحرقون إليها منذ تأسيس المسيحية، وكيف قيل أن هذه الأشباح كانت في الواقع بمثابة استدعاءات تمت بفعل الطقوس الدموية».

استمعت أنا ود.سايلنس باندهاش لأن هذا الحديث المفاجئ لم يكن متوقعًا أبدًا، وأظهر لنا معرفة أكثر بكثير مما كنا نظنه عن الجندي العجوز.

قال الطبيب: «ربما قرأت أيضًا، كيف تم الحفاظ على الألوهية الكونية للأجناس الوحشية، العنصرية في طبيعتها،

حية عبر العديد من الأجيال بسبب طقوس الدم هذه؟».

أجاب: «لا. هذا جديد بالنسبة لي».

أضاف د.سايلنس: «على أي حال، أنا سعيد لأنك لست على دراية تامة بالموضوع لأنك ستجلب الآن مزيدًا من التعاطف لتجربتنا، ومن ثم المزيد من المساعدة. إننا بالطبع، في هذه الحالة، نريد فقط أن يقوم الدم باستدراج المخلوق من مخبأه وتقييده بشكلٍ ما...».

تابع حديثه، وجاءت كلماته أبطأ كثيرًا، كما لو أنه شعر أنه قال الكثير بالفعل: «أتفهم هذا تمامًا. لقد ترددت الآن فقط لأنني كنت أتمنى أن أكون متأكدًا تمامًا من أن ذلك ليس مجرد فضول، ولكنه شعور فعلي بالضرورة التي فرضتها علينا هذه التجربة الرهيبة».

أجاب الطبيب قائلاً: «إن سلامتك وسلامة أسرتك وشقيقتك معرضة للخطر. آمل أن يظهر، فأكتشف من أين يأتي هذا العنصر وما الغرض الحقيقي منه».

صدّق الكولونيل راج على الكلام بإيماءة.

قال الآخر: «سيساعدنا القمر، لأنه سيكون تامًّا في الساعات

الأولى من الصباح، وهذا النوع من الكائنات العنصرية هو الأكثر نشاطًا دائمًا في مدّة اكتمال القمر. لذلك، كما ترى، فإن مفتاح حلّ اللغز موجود في يومياتك».

لذلك فقد تمّ تسوية الأمر أخيرًا. أمدّنا الكولونيل راج بالموادّ اللازمة للتجربة، وكان علينا أن نلتقيَ في منتصف الليل. لكن كيف كان سيدبّر الأمر في تلك الساعة؟ كان ذلك من شأنه. أعرف فقط أن كلينا أدرك أنه سيفي بوعده. سواء مات خنزير في منتصف الليل أو في الظهيرة، فربما كان الأمر في النهاية هو مسألة النوم والراحة الشخصية للجاني.

قال د.سايلنس أخيرًا كي يحسم الخطّة: «إذن في هذه الليلة، في المغسلة، نحن الثلاثة وحدنا، وفي منتصف الليل، عندما يكون أهل البيت نائمين ونكون أحرارًا من الازعاج».

تبادل نظرات بليغة مع مضيفنا الذي تم إعلامه في تلك اللحظة، عن وصول طبيب الأسرة، الذي كان مستعدًا لمقابلته في غرفة أخته.

خلال ما تبقى من مدّة ما بعد الظهر، اختفى جون سايلنس. كانت لديّ شكوك بأنه قام بزيارة سرية للمزرعة وأيضًا إلى مبنى الغسيل ولكن على أيّ حال، لم نره، وظل محتفظًا بسره

لنفسه. كنت واثقًا أنه كان يعد نفسه لهذه الليلة، لذا، لم أتمكّن من معرفة طبيعة تجهيزاته، بل كانت مجرد تخمينات. سمعت صوت حركة في غرفته وشممت رائحة مثل رائحة البخور تحوم حول الباب، ومع علمي بأنه كان يعد الطقوس بمثابة محركات للطاقة، فربّما لم تكن تخميناتي مخطئة تمامًا.

ظلّ الكولونيل راج غائبًا عن الجزء الأكبر من مدة ما بعد الظهيرة، ولشعوره بالحزن الشديد، نادرًا ما كان يفارق فراش أخته، ولكن استجابة لطلبي عندما التقينا لحظة في وقت الشاي، أخبرني أنه على محاولاتها الكلام للحظات، كان حديثها غير متماسك وهستيريًا إلى حدٍ ما، وكانت لا تزال غير قادرة على شرح طبيعة ما شاهدته. قال إنّ الطبيب كان يخشى أن تكون قد تعافت من حيث استخدام أطرافها، كي تفقد ذاكرتها، وربّما حتّى عقلها.

«على أيّ حال أرجو أن يكون شفاء ساقيها شفاء دائمًا...». وجدت صعوبة في معرفة ماهية التعاطف الذي يجب أن أقدّمه. أجاب بضحكة قصيرة غريبة: «نعم، لا شكّ في ذلك».

كان السبب في ذلك هو مجرد فرصة سماعي لجزء من المحادثة دون قصد مني، وبالطبع تم إلقاء مزيد من الضوء

على الحالة التي ترقد فيها السيدة العجوز بالفعل. لأنه عندما خرجت من غرفتي، حدث أن الكولونيل راج والطبيب كانا يهبطان إلى الطابق السفلي معًا، وقفزت كلماتهما إلى أذني قبل أن أشير لهما بوجودي بسعالي الشديد.

قال الطبيب بحزم: «إذن عليك أن تجد حلًا، لأنني لا أستطيع الإصرار على ذلك بشدة، وعليها أن تبقى هادئة بأي حال من الأحوال. يجب منع محاولاتها للخروج ولو بالقوة إذا لزم الأمر. إن رغبتها في زيارة غابة ما أو غيرها، التي دائمًا ما تتحدث عنها هي بالطبع شيء هستيري، لا يمكن السماح به للحظة».

سمعت رد الجنديّ عندما وصلا إلى القاعة في الأسفل: «لا يجوز ذلك».

واصل الطبيب حديثه بطريقة واضحة: «أثّر هذا في ذهنها لسبب ما...»، وبعد ذلك ابتعدت المسافة بحيث أصبح من المستحيل أن أسمع المزيد.

كان د. سايلنس لا يزال غائبًا في وقت العشاء، بحجّة أنّه كان يعاني من صداع، وعلى إرسال الطعام إلى غرفته، إلا أنّني أميل إلى الظن أنه لم يلمسه، ولكنّه قضى كل الوقت صائمًا.

لقد نمنا مبكّرًا، راغبين في أن يفعل أهل البيت الأمر ذاته، ويجب أن أعترف أنّي في الساعة العاشرة عندما تمنيت لمضيفي ليلة سعيدة، ولزمت غرفتي للقيام بما يمكنني أن أفعله من استعداد عقلي، أدركت بطريقة ليست لطيفة أنها كانت مهمة غريبة ومخيفة؛ أقصد اجتماع منتصف الليل هذا في مبنى المغسلة. كانت هناك لحظات في كل مغامرة في الحياة يكون فيها رجل حكيم، يعرف حدود قدراته بالضبط، فينسحب بتحفظ من أجل كرامته. لولا شخصية قائدنا، ربّما كان ينبغي عليّ في ذلك الوقت وذلك المكان بالذات أن أجد أفضل عذر من الممكن التفكير فيه، وأن أسمح لنفسي بهدوء أن أنام منتظرًا قصة مثيرة لما سيحدث في الصباح. ولكن مع رجل مثل جون سايلنس، كان هذا الانقطاع غير وارد. جلست قبالة مدفأتي وأنا أحسب الدقائق وأبذل قصارى جهدي في التفكير في تقوية قراري، وتثبيت إرادتي، عند النقطة التي يمكن أن أكون متأكدًا فيها بشكل معقول من أن تحكمي في نفسي سيصمد قبالة كل هجمات الناس أو الشياطين أو المخلوقات النارية.



تسلّلت بحذرٍ من غرفتي، منتعلًا خفًّ، قبل ربع ساعة من منتصف الليل، مرتديًا ثوبًا ثقيلًا، سائرًا بتلصص في الممرّ بهدوء حتّى قمة الدرج. انتظرت لحظة كي أتنصت خارج باب الطبيب. كان كلّ شيء خامدًا، المنزل في ظلام دامس، لا بريق ضوء أسفل أي باب. كانت هناك فقط أصوات خافتة من الضحك وحديث غير متماسك، على طول الممرّ من اتجاه غرفة المريضة، ولم تكن هذه أشياء تطمئن عقلًا هو بالفعل مرتجف إلى حد ما. أسرعت للوصول إلى القاعة وسمحت لنفسي بأن أخرج من الباب الأمامي في الليل.

كان الهواء شديد البرودة، معطرًا برائحة الليل، ومنعشًا بشكل رائع؛ ملايين الشموع مضيئة في السماء، وهبَّ نسيم باهت وسقط على قمم أشجار الصنوبر مصدرًا صوتًا بدا كالزفير. تدفّق الدم بداخلى لحظة في رحابة هذا الليل، لأنّ النجوم الرائعة جلبت الشجاعة، لكن في اللحظة التالية، عندما تجوّلت حول المنزل، متحرّكًا خلسة أسفل الطريق المفروش بالحصي، انخفضت معنوياتي مرة أخرى بشكل مخيف. رأيت هناك بعيدًا فوق السحب الجنائزية لمزرعة الاثنتي عشرة فدانًا، القرص الأصفر

المكسور للقمر المنتصِف يرتفع في الشرق، محدّقًا للأسفل كأنّه كائن جبّار يراقب الفناء. بدا وجهها غير مألوف بشكل غريب انطلاقا من الأبخرة الغريبة للغلاف الجويّ، وتطوّر تعبيرها المعتاد بالخواء الحنون بطريقة أو بأخرى. تسلّلت انطلاقا من ظلال الجدار وأبقيت عيني على الأرض.

كانت غرفة الغسيل منفصلة عن المكاتب الأخرى كما هو موصوف بالفعل، حيث كانت الشجيرات المكللة بالغار تتجمّع بكثافة وراءها، وكانت حديقة المطبخ قريبة جدًّا على الجانب الآخر، حتّى إنّ الرائحة القوية للتربة والأشياء المتنامية ظهرت بشكل كبير. وصلت ظلال المزرعة المسكونة، التي كانت طويلة بشكل هائل من قبل القمر الصاعد خلفها إلى الجدران، وغطّت البلاط الحجريّ في السقف بغطاء داكن. كانت حواسّي يقظة بشدة في هذه اللحظة، حتى إنّي ظننتني قادرًا على كتابة فصل من كتاب مليء بالتفاصيل الصغيرة التي لا تنتهي، عن الانطباع الذي كونته عن الظلال والرائحة والأشكال والأصوات في غضون بضع ثوان.

وقفت وانتظرت أمام الباب الخشبي المغلق. أدركت أن شخصًا ما يتحرك نحوي خلال ضوء القمر. جاء جون سايلنس

مسرعًا، بدون معطف، حاسر الرأس ودون أن يصدر ضجيجًا، وانضم إليَّ. رأيت في الحال أن عينيه كانتا مشرقتين بشكل رائع، وكان وجهه موسومًا بشحوب لامع لدرجة أنني لم أستطع تحديد متى مر من ضوء القمر إلى الظل.

لقد مر دون أن ينطق بكلمة وحثني على المتابعة، ثم دفع الباب ليفتحه ودخل.

اصطدمنا بهواء المكان البارد، كذاك الذي في سرداب تحت الأرض. أما الأرضية الطينية والجدران المطلية باللون الأبيض والمغطاة بخطوط الدخان والرطوبة، كانت تدفع بالبرد في وجوهنا. فغرت المدفأة الضخمة فمها الأسود أمامنا مباشرة وكان رماد نيران الخشب لا يزال متراكمًا ومبعثرًا حولها، وعلى جانبي عمود المدخنة الناتئ كانت هناك تجاويف عميقة تحمل المرجلين الكبيرين لأجل غلي الملابس. على أغطية هذين المرجلين كان هناك مصباحين زيتيين صغيرين، ألقيا ظلًا أحمر على المكان، وكانت هناك طاولة دائرية صغيرة مع ثلاثة مقاعد حولها أمام المدفأة مباشرة. فوق رؤوسنا، شكلت النوافذ ذات الشقوق الضيقة، أعلى الجدران، شبكة خافتة من العوارض الخشبية وقد وارتها الظلال بعض الشيء ولاحت

من فوقها قبة السطح المظلمة. كان الجو كئيبًا على كل هذا الضوء الأحمر الموجود. ذكرني ذلك بالطبع باجتماع ما سري حديث، ليس فيه مقاعد ولا منبر؛ اجتماع بغيض للغاية، ولقد صدمت بشدة بسبب التعارض بين الاستخدامات العادية التي عادة ما كان المكان مخصص لها، والهدف الغريب الذي ينتمي لزمن القرون الوسطى، ذاك الذي جمعنا تحت سقفه الليلة.

من المحتمل أن تكون قشعريرة لا إرادية قد اكتنفتني، لأن رفيقي التفت إليّ بنظرة واثقة لطمأنتي، وكان متحكمًا في نفسه تمامًا لدرجة أن غمرني حضوره تمامًا، وشعرت بأن الصدوع التي اكتنفت جدار شجاعتي قد بدأت في الانغلاق والتعافي... كان النظر في عينيه يشبه أن تجد سياجًا عقليًا يوجه ويدعم الفكر عبر تلك الحواف المنذرة التي تثير الدوار.

همست ملتفتًا كي أصغي لوقع الأقدام التي تقترب: «أنا مستعد تمامًا».

أومأ برأسه ولم يزل مثبتًا عينيه عليّ. بدا صوت همسنا عميقًا لأن صدى الصوت دوى فوق رؤوسنا بين العوارض الخشبية.

قال: «يسعدني أنك هنا. ليست لدي الجميع الشجاعة.

تحكم في أفكارك، وتخيل وجود جدار قوقعة حولك؛ حول كيانك الداخلي».

كررت كلامي: «أنا على ما يرام» لاعنًا أسناني المرتعشة.

أخذ يدي وهزّها، ويبدو أن الملامسة بعثت في داخلي شيئًا ما من ثقته الفاتنة. يمكن لعيون وأيدي رجل قوي أن تلمس الروح. أظن أنه خمن ما يدور في فكري، لأنه ابتسم ابتسامة عابرة ارتسمت على أطراف فمه.

قال بنبرة خافتة: «ستشعر بمزيد من الراحة، عندما تكتمل السلسلة. بالطبع يمكننا الاعتماد على الكولونيل. تذكر- أضاف محذرًا- فمع ذلك، قد يتملكه الشيء تمامًا عندما يحدث الأمر، لأنه لن يعرف كيف يقاوم. ومن الصعب شرح هذا الأمر لمثل هذا الرجل!»، ثم هزّ كتفيه استهجانًا بصورة معبرة. «لكن هذا سيكون مؤقتًا فقط، وسأنتبه حتى لا يصيبه أي ضرر».

نظر حوله على الترتيبات مبديًا الموافقة.

قال مشيرًا إلى المصابيح المظللة: «لدى الضوء الأحمر أدنى معدل للاهتزاز. تتبدد التجسيمات بفعل الضوء القوي،

ولن تتشكل أو تتماسك في اهتزازات سريعة».

لم أكن متأكدًا من أنني وافقته تمامًا على موضوع هذا الضوء الخافت، لأنه في الظلام التام، هناك شيء واقٍ؛ ألا وهو حقيقة أن المرء لا يمكن رؤيته ويمكن للضوء الخافت أن يلغي هذه الحقيقة، ولكنني تذكرت التحذير للحفاظ على أفكاري ثابتة والامتناع عن التعبير عنها.

كانت هناك خطوة بالخارج؛ كان الكولونيل واقفًا في المدخل. وعلى دخوله على أطراف رؤوس أصابعه، إلا أنه أثار ضجة وقعقعة كبيرة، لأن العبء الذي حمله أعاق حركاته الطليقة. رأينا وعاءً أصفر كبيرًا يمتد خارج جسمه مسافة ذراع، والفم مغطى بقماشة بيضاء. لاحظت أن تقاسيم وجهه كانت حادة. تمالك نفسه تمامًا. كلّما فكّرت في أنّ هذا الجندي العجوز يتحرّك عبر سلسلة طويلة من الإنذارات، منهكًا من فرط المراقبة، ضجرًا من الهجوم المستمرّ عليه، غير متنوّر، لكنّه رابط الجأش. حتى عندما وصل إلى الصدمة الرهيبة المروعة لشقيقته، ولا يزال يُبدي جسارة عنيدة مستمرة في مواجهة الإخفاق، فهمت ما يعنيه الدكتور سايلنس عندما وصفه بأنه رجل «يجب الاعتماد عليه».

أظنّ أنّه لم يكن هناك شيء يتجاوز هذه الصلابة التي تتّسم بها ملامحه الصارمة، ودرجة رمادية معيّنة للبشرة، لإظهار اضطراب العواطف التي كانت تحدث داخله بلا شكّ. لقد جعلتني نوعية هذين الرجلين -كلاهما بطريقته الخاصة- أشعر بالتوتر. وبعد بمرور بعض الوقت، وعندما أُغلق الباب وتبادلنا التحيات الصامتة، ظهرت كل الشجاعة الكامنة التي بداخلي، وشعرت أني واثق من نفسي بدرجة لم أشعر بها من قبل.

وضع الكولونيل راج الوعاء بعناية في وسط الطاولة.

قال باقتضاب: «إنّه منتصف الليل» وهو ينظر إلى ساعته، فتحرّكنا جميعًا صوب مقاعدنا.

جلسنا هناك في منتصف هذا المكان البارد الساكن مع ذلك الوعاء غير اللطيف أمامنا، وبخار رقيق يصعب إدراكه يتصاعد من سطح القماش الأبيض انطلاقا من الهواء الرطب، واختفي للأعلى في اللحظة التي تجاوز فيها منطقة الضوء الأحمر ودخل في الظلال العميقة التي كان يلقي بها للأمام جدار المدخنة الناتئ إلى الأمام.

كان الطبيب قد أشار إلى أماكننا ووجدت نفسي جالسًا، وظهري إلى الباب، مقابل للمدفأة السوداء. كان الكولونيل

على يساري، و د.سايلنس على يميني؛ كلاهما يواجهني تقريبًا. وكان الأخير في الظل أكثر من الأول. هكذا قمنا بتقسيم الطاولة الصغيرة إلى أقسام متساوية، وجلسنا على مقاعدنا في انتظار الأحداث في صمت.

لا أظن أن أي صوت خافت قد صدر داخل تلك الجدران الأربعة تحت مظلة ذلك السقف المقبّب، لما يقرب من الساعة. لم تُحدث نعالنا أيّ صوت للأرضية الرملية، وقمعنا تنفّسنا تمامًا، حتّى حفيف ملابسنا كان غير مسموع ونحن ننتقل من وقت لآخر على مقاعدنا. لقد خنقنا الصمت تمامًا؛ صمت الليل والاستماع وصمت توقع الأشباح. تناهى إلينا صوت خرير المصابيح، وبدا شديد النعومة حتى أننا لم نستطع سماعه، وإذا كان للضوء نفسه صوت، فلا أعتقد أننا لاحظنا ضوء القمر الفضي عند دخوله من النوافذ العالية الضيقة وهو يلقي بإماراته وخطواته الشاحبة الضعيفة على الأرضية.

جلست أنا والكولونيل راج والطبيب، كأشكال حجرية، لأجل هذه المسألة، دون حديث أو إيماءات. طافت عيناي باستمرار من الوعاء إلى وجهيهما ومن وجهيهما إلى الوعاء. ربما كانا وجهين مستعارين لأن كل علامات الحياة التي

أبدياها والضوء الذي كان ينبعث من المحتويات الرهيبة أسفل القماش الأبيض، لم تعد مرئية لفترة طويلة.

في الحال، عندما ارتفع القمر أكثر، هبت الريح معه. لقد زفرت مثل أجنحة مارة بالقرب من السطح. تسللت بهدوء حول الجدران. جعلت الريح الأرضية الحجرية مثل الثلج تحت أقدامنا. مع ذلك رأيت بذهني المستنقعات الخاوية وهي تتدفق حول المنزل القديم مثل البحر، وامتداد التلال التي تقف وحيدة عارية من الأشجار والأجمات الأقرب المتجهمة والغامضة في الليل. رأيت المزرعة أيضًا على وجه الخصوص، وتخيّلت أنّني سمعت الهمسات الحزينة التي يجب أن تكون الآن مثيرة بين قمم الأشجار، حيث كان النسيم مهزومًا بين السيقان الملتوية. تقابلت أشعة ضوء القمر في عمق الغرفة خلفنا، وعبرت في شبكة متنامية.

حلَّت الواحدة صباحًا، عندما بدأت الكلاب في النباح قرابة الاصطبل أول مرة، ورأيت جون سايلنس يتململ في مقعده ويبدي انتباهًا. في الحال بلغت كلّ قوة كينونتي أقصى درجات اليقظة. تحرّك الكولونيل راج أيضاً، ببطء، ودون أن يرفع عينيه عن الطاولة التي أمامه.

مدَّ الطبيب ذراعه وأخذ قطعة القماش البيضاء من الوعاء.

ربّما كان الخيال هو الذي أقنعني أنّ الوهج الأحمر للمصابيح أصبح خافتًا بدرجة أكبر، وأن الهواء فوق الطاولة أمامنا أصبح كثيفًا. كنت أتوقّع شيئًا ما مدّة طويلة حتّى إنّ حركة رفاقي ورفع قطعة القماش، قد تسبّبت بسهولة في الإيهام بأن شيئًا ما حلَّق في الهواء قبالة وجهي، ولمس جلد خدّي لمسة ناعمة كالحرير. لكن من المؤكّد أنه لم يكن وهمًا أنّ الكولونيل نظر إلى أعلى في اللحظة نفسها وألقى نظرة من فوق كتفه، كما لو أنّ عينيه تبعتا حركات شيء ما ذهابًا وإيابًا حول الغرفة، ثم زرر معطفه بشكل أكثر إحكامًا حوله وتلاقت عيناه بوجهي أولاً، ثم وجه الطبيب. لم يكن وهمًا أنّ وجهه بدا كئيبًا إلى حدّ ما، وانتشر شيء على وجهه كما لو أنه سواد مبهم. رأيت شفتيه تتقلّصان وتعبيره يصبح أكثر قوة وصرامة. بالطبع خطر ببالي أن هذا الرجل قد أخبرنا بجزء من خبراته التي مرّ بها في المنزل، وأنّه كان هناك أكثر من ذلك بكثير لم يكن قادرًا على كشفه. كنت واثقًا من ذلك. لقد كشفت الطريقة التي التف بها وحدّق فيما حوله، باعتياده على أشياء أخرى غير تلك التي وصفها لنا. لم يكن يبحث عن مجرّد مشهد حريق، كان يبحث عن مشهد لشيء ما حيّ، ذكيّ؛ شيء ما قادر على التملّص من

بحثه... كان يبحث عن شخص... كان يراقب الكائن القديم الذي سعى إلى الاستحواذ عليه.

لقد أكّد انطباعي ذلك الطريقة التي تفاعل بها د. سايلنس مع نظرته، مع أنّها كانت فقط نظرة تعاطف غير ملحوظ.

سمعته يقول هامسًا: «قد نكون مستعدين الآن»، ففهمت أن كلماته كانت بمثابة تحذير ثابت، ونشَّطتْ نفسي قوى عقلي إلى أكبر حدّ ممكن.

لكن قبل مدة طويلة من التفات الكولونيل راج للتحديق حول الغرفة، وقبل أن يؤكّد الطبيب انطباعي أن الأمور بدأت في التحرّك أخيرًا بوقت طويل، أدركت بأكثر الأشكال تفرّدًا أنّ المكان كان يحوي أكثر من ثلاثتنا. مع ازدياد الريح، حدثت هذه الزيادة في أعدادنا أول مرة. يبدو أنّ نباح كلاب الصيد، أشار في الغالب إلى ذلك. لا أستطيع أن أقول كيف يكون من الممكن أن ندرك أن مكانًا شاغرًا لم يصبح فجأة شاغرًا عندما لا يروق القادم الجديد لحواسّنا، لأنّ الإقرار بـ «غير المرئي»، كما هو الحال في التغيّر في توازن القوى الشخصية في مجموعة بشرية، لا يمكن تحديده أو إثباته. ومع ذلك فهو واضح. عرفت تمام المعرفة اللحظة التي أصبح فيها الجو داخل هذه الجدران

الأربعة مُشبعًا بوجود كائنات حية أخرى بجانبنا. وعند التأمّل في الأمر، اقتنعت أن كلا الرفيقين عرفا ذلك أيضًا.

قال الطبيب بصوت هامس جدًّا: «راقب النور»... ثم علمت أيضًا أنّه لم يكن من خيالي أن الهواء أصبح أكثر قتامة، وأن الطريقة التي التفت بها جون سايلنس لفحص وجه مضيفنا، بثَّت إثارة كهربائية من التعجب وارتجافًا في كلّ عصب في جسدي من فرط الترقب.

ومع ذلك، لم يكن شعوري رعبًا؛ بل نوعًا من الدوار العقلي وإحساس بأنّي معلّق على ارتفاع شاهق، بعيد عن المكان الذي يمكن أن يحدث فيه الأمر -وكان في الواقع على وشك الحدوث- وهذا ما لم يحدث من قبل على مرأى من إنسان. ربّما يكون الرعب حالة عامة، لكنّه لم يكن رعبًا بشكل رئيس، ولا رعبًا شبحيًّا بأي حال من الأحوال.

استمرّت الأفكار غير المألوفة تطرق ذهني مثل المطارق الصغيرة، بنعومة ومثابرة، تسعى إلى القبول. بدأ تيارها يتدفق من تلقاء نفسه على طول الأطراف البعيدة في ذهني؛ تيارات الأحاسيس الغريبة التي تنبعث في الحدود البعيدة عن وعيي. كنت على علم بالأفكار وأوهام الأفكار التي لم أكن أعرفها

أبدًا من قبل. لقد تقلقلت أجزاء من كينونتي لم تُقلقل أبدًا من قبل، وبزغت على السطح الأشياء القديمة التي لا يمكن تفسيرها وأغوتني كي أتتبعها. شعرت كما لو أنني كنت على وشك أن أطير، في ظل وهم شديد، إلى الفضاء الخارجي غير المعروف حتى الآن ولا حتى في الأحلام. وكانت النتيجة الوحيدة التي استنتجتها هي أنني كنت سعيدًا بشكل غير مألوف لتثبيت عقلي وكذلك عيناي، على الشخصية البارعة للطبيب الموجود بجواري، حيث أدركت أنّه يمكنني دائمًا الاستفادة من قوى التعقّل والسلامة.

عدت إلى المشهد الذي أمامي بجهد كبير من الإرادة، وحاولت أن أركّز انتباهي، بأفكار أكثر ثباتًا على الطاولة وعلى الشخصيّات الصامتة الجالسة حولها. ثم رأيت أنّ بعض التغييرات المعيّنة قد طرأت على المكان الذي جلسنا فيه.

لاحظت أنّ البقع التي شكّلها ضوء القمر على الأرضية أصبحت خافتة بشكل غريب. لم يكن وجهي الرفيقين المقابلين مرئيين بوضوح كما كانت من قبل، وكانت جبهة وخدي الكولونيل راج يتصبّبان عرقًا. بالإضافة إلى ذلك أدركت، أن تغيّرًا غير عادي قد حدث في درجة حرارة الغلاف

الجويّ. كان للدفء المتزايد تأثير مؤلم، ليس على الكولونيل راج وحده ولكن علينا جميعًا. كان غير طبيعي ومن الصعب تحمّله. اشتدّت درجة لهاثنا، فعليًا ومجازيًا.

قال د. سايلنس بنبرة خفيضة، ناظرًا إلى الكولونيل: «أنت أول من شعر به. بالطبع تشعر بلمسة أكثر حميمية...».

كان الكولونيل يرتجف وبدا أنّه في كرب بالغ. اهتزّت ركبتاه، حتى إنّ تبادل وقع أقدامه قد أصبح مسموعًا. أمال رأسه لإظهار أنّه سمع، لكنّه لم ينبس بشفة. أظن أنّه حتى ذلك الحين كان يشعر بالألم، لأنه كان يصطنع امتلاكه لزمام نفسه. كنت أعرف ما كان يكافح ضده. كان كيانه على وشك أن يتمّ الاستحواذ عليه تمامًا، كما حذّرني د. سايلنس وكان يقاوم بوحشية، وإن كان بلا جدوى.

لكن في الوقت نفسه بدأ شعور غريب بالبهجة يجتاحني. كانت السخونة المتزايدة مبهجة، حيث جلبت لي إحساسًا بالنشاط المكثّف والأفكار التي تتدفّق عبر العقل بسرعة عالية وصور حية في المخّ ورغبات عنيفة وطاقات صاعقة حيّة في كلّ جزء من أجزاء الجسم. لم أكن واعيًا بأيّ ألم جسدي، مثلما شعر الكولونيل؛ ولكن فقط بشعور غامض بأنّ كل شيء

قد يصبح فجأة شديدًا للغاية، حتّى إنّني شعرت بأنّني قد أكون مستهلكًا وأنّ شخصيتي وكذلك جسدي، قد يذوبان في وهج من روح نقية. بدأت بسرعة شديدة جدًّا حتّى إنّني لم أستطعْ الاستمرار. كان الأمر كما لو أنّ آلاف من النشوات حاصرتني...

همس صوت جون سايلنس في أذني: «اثبت!»، فنظرت بتحفز لأرى أن الكولونيل نهض من مقعده. نهض الطبيب أيضا. تتبعت المجموعة، وأول مرة نظرت إلى الوعاء. ما أدهشني وأرعبني هو أنني رأيت أن المحتويات تضطرب في الوعاء. كان الدم يعج بالحركة.

شاهدنا بقية هذه التجربة ونحن واقفون. لقد أتت أيضًا مع مفاجأة غريبة. لم يكن هناك المزيد من أحلام اليقظة بالنسبة لي على أي حال.

لن أنسى أبدًا شخصية الكولونيل راج وهو يقف بجانبي منتصبًا، قوي الإرادة، واطد العزم، بقدمين ثابتتين، في حَيرة لا تُصدق، لكنه مليء بالغضب حدّ الرغبة في القتال. كان محاطًا بإطار من الجدران البيضاء، ويلوح على خدّيه توهّج المصابيح الأحمر، وعيناه متوهّجتان قبالة بشرته الشاحبة شحوب الموت، متنفّسًا بصعوبة، باذلًا جهدًا، ويداه تتشنجان

وكذلك جسده لإبقاء سيطرته على نفسه. كان كيانه بأكمله يحرضه على القتال الوحشي ولكن مع عدم وجود أي هدف شيء يمكن رؤيته أو الوصول إليه في أي مكان، وقف هناك ساكنًا. لم أر أبدًا مثل هذا الانعكاس الغريب للجلد الشاحب والوجه المتوهج من قبل، ولا أرغب في رؤيته مرة أخرى.

لكن ما ترك انطباعًا أكثر حدة على ذاكرتي هو السواد الذي بدأ بالزحف على وجهه، طامسًا ملامحه، وخافيًا الملامح الرئيسة لبشرية هذه الملامح، واختفاءه هو شخصيًا بوصة بوصة. كان هذا أول ما فهمته؛ أقصد أن عملية التجسيد كانت تباشر عملها. أصبحت هيئته محتجبة. انتقلتُ من جانب إلى آخر كي أبقيه داخل نطاق رؤيتي، وعندها فهمت فقط أن اللون الأسود لم يكن موجودًا على ملامح الكولونيل راج، بل كان هناك شيء ما قد حشر نفسه بيني وبينه، ومن ثمّ أخفى وجهه بتأثير حجاب مظلم. يبدو أن شيئًا ما قد ارتفع خلال الأرضية، وكان يمر ببطء في الهواء فوق الطاولة وفوق الوعاء. إضافة إلى ذلك، كان الدم في الوعاء أقلّ بكثير من قبل.

مع هذا التغيير في الهواء الذي أمامنا، طرأ في الوقت ذاته تغيير آخر في وجه الجندي، فقد مال نصفه نحو المصابيح الحمراء،

بينما كان النصف الآخر مضاءً بضوء القمر الخافت المتساقط انطلاقا من النوافذ العالية بشكل مائل، بحيث كان من الصعب تقدير هذا التغيير بتفاصيل دقيقة. لكن يبدو لي أنه على أن ملامح الوجه، العيون والأنف والفم، ظلت كما هي، فإن الحياة التي كانت تدب فيها، خضعت لتحول ما عميق. تسللت قوة جديدة إلى الوجه وتركت آثارها هنالك؛ تعبير مظلم وفظيع بطريقة لا يمكن شرحها.

ثم فتح فمه فجأة وتحدث... لقد جعلني هذا الصوت المتغير، على أنه كان عميقًا ومنغمًا، أشعر بالبرودة وجعل قلبي ينبض بسرعة غير مريحة. كانت الكينونة، كما كان يُخشى، بالفعل قد استولت على عقله، مستخدمة فمه.

قالت نغمات هذا الصوت المجهول، والتي كان يبدو أن نصفها يخصه والنصف الثاني لكائن آخر: «أرى سوادًا مثل سواد مصر أمام وجهي. إنهم يخرجون من هذه الظلمة».

التفت مرعوبًا. التفت الطبيب كي ينظر إليّ للحظة، ثم تحول انتباهه إلى شخصية مضيفنا، فأدركت بطريقة ما، حدسية، أنه كان هناك ليراقب أغرب رجل مناضل من الممكن أن يراه؛ يراقبه وإن لزم الأمر، يحميه.

همس لي من خلال الظلال: «لقد تمت السيطرة والاستحواذ

عليه». اكتسى وجهه تعبيرًا رائعًا؛ نصف انتصار ونصف إعجاب.

حتى عندما تكلم الكولونيل راج، بدا لي أن هذه الظلمة المرئية بدأت في الازدياد، وأنها تتدفق بشكل كثيف، خارجة من الأرض بجوار المدفأة، ترتفع على الستائر والمفارش، حاجبة عيوننا ووجوهنا. لقد أخرجت من الأسفل سوادًا فظيعًا، بدا وكأنه يمتص جميع إشعاعات الضوء في المبنى، ولم تترك سوى شبح الإضاءة في مكانها. ثم انبثق ضوء طيفي خافت من هذه الموجة من الظلال المتزايدة، وبدأ ينتشر تدريجيًا حولنا. في قلب هذا الضوء رأيت أشكالًا نارية تتزاحم وتتجمع. لم تكن هذه الأشكال بشرية، أو حتى لأي شيء حي أعرفه في هذا العالم، بل كانت معالمَ للنار تشكّل كرات ومثلثات وعلامات الضرب والجمع والأجسام المضيئة لمختلف الأشكال الهندسية. لقد أصبحت ساطعة، ثم ذوت، ثم ازدادت إشراقًا مرة أخرى بتأثير النبض على ما يبدو. مرت بسرعة في الهواء جيئة وذهابًا، ترتفع وتسقط، وخاصة في المكان الذي فيه الكولونيل مباشرة، وغالبًا ما كانت تتجمع حول رأسه وكتفيه، وكان يبدو أنها تستقر عليه مثل حشرات عملاقة من اللهب. علاوة على ذلك، كانت مصحوبة بصوت خافت من الهسهسة؛ إنه نفس الصوت الذي سمعناه بعد ظهر ذلك اليوم في المزرعة.

قال الطبيب بنبرة صوت منخفضة: «تسبق المخلوقات النارية سيدها. كن جاهزًا».

بينما استمر هذا العرض الغريب لأشكال النار وهي تومض وتتلاشى بالتناوب، وكان صدى الهسهسة واهنًا بين العوارض الخشبية الباهتة في الأعلى، سمعنا الصوت الرهيب يخرج على فترات من شفتي الجندي المعذب. كان صوتًا متسلّطًا رائعًا بشكل لا يمكن وصفه، وبإحساس معين بالظلمة في إيقاعاته، كنت أستمع إليه بقلب ينبض بسرعة، كان بإمكاني أن أتخيل أنه كان صوتًا قديمًا للزمن نفسه، دوى أسفل ممرات هائلة من الحجر، من أعماق المعابد الشاسعة، من قلب المقابر الجبلية.

دوت النغمات العظيمة: «لقد رأيت أبي الروحي، أوزوريس. لقد نشرت كآبة الليل. لقد دخلت، أنا الواحد مع الآلهة المرصعة بالنجوم!».

حلّ شيء ما كبير على وجه الجندي. كان يحدق بثبات أمامه، كما لو أنه لم ير شيئًا.

همس د. سايلنس في أذني: «راقب»، وبدا أن همسه جاء من بعيد جدًا.



انفتح الفم مرة أخرى وصدر الصوت الهادر بقوة.

هدرت: «لقد حلّ تحوت ضمادات شيث التي قيَّدت فمي. لقد اتخذت مكاني في رياح السماء العظيمة».

سمعت ريح الليل الضعيفة، بصوتها الحزين عبر العصور، وهي تتنهد حول الجدران وفوق السطح.

جاء صوت الطبيب من جانبي: «اصغ!». واستمر هدير الصوت...

«لقد أخفيت نفسي معك يا أيتها النجوم التي لا تتضاءل أبدًا. أَتذكَّر اسمي... في... بيت... النار!».

انقطع الصوت وتلاشت الأغنية. انتعش شيءٌ ما في وجه وشخصية الكولونيل راج كما ظننت. اختفت النظرة الفظيعة من وجهه. لقد اختفى الكائن الذي استحوذ عليه.

قال لي د.سايلنس على انفراد بصوت منخفض للغاية: «الآن تتركه الطقوس العظيمة؛ كتاب الموتى... سيصيغها الدم جسدًا في القريب».

ترنح الكولونيل راج فجأة، ووقف بلا حراك تمامًا طوال

ذلك الوقت، حتى إنني ظننت أنه سيسقط، ولولا أن الطبيب أنجده بذراعه بسرعة، كان من المحتمل أن يسقط لأنه كان يترنح كما لو أنه في بداية الانهيار.

صرخ: «أنا سكران بخمر أوزوريس»، وكان صوته بنصف قوته في هذه المرة... «لكن حورس، المراقب الخالد، موجود حولي في مسيري لأجل سلامتي...». تضاءل الصوت ووهن وأخذ يتلاشى في شيء ما كصرخة من حزن.

قال د. سايلنس بصوت عالٍ: «والآن، راقب من كثب، لأنه بعد الصرخة ستأتي النار!».

بدأت أرتعش لا إراديًا... حدث تغيير فظيع دون سابق إنذار في الهواء. أصبحت ساقي ضعيفتين كورق تحت وزني واضطررت لدعم نفسي بالميل على الطاولة. رأيت الكولونيل راج يميل هو الآخر إلى الأمام بنوع من الضعف. لقد اختفت جميع أشكال الحرائق ولكن وجهه كان مضاءًا بالمصابيح الحمراء وكان ضوء القمر، الباهت، المتحرك، يرتفع من خلفه كالضباب.

كنا نحدق في الوعاء، الذي فرغ تقريبًا بحلول تلك اللحظة. انحنى الكولونيل بصورة شديدة جدًا حتى إنّني في كل دقيقة كنت أخشى أن يفقد توازنه ويسقط فيه، وأخيرًا بدأ الظل الذي

كان في طور التكوين طويلًا في وضع خطوط عريضة ملموسة في الهواء أمامنا.

تقدم جون سايلنس للأمام بسرعة. أخذ مكانه بيننا وبين الظل. لقد رأيته واقفًا هنالك؛ منتصبًا، جبارًا، يسيطر على الموقف تمامًا، بوجهه هادئ تلوح عليه ابتسامة. كان هناك لهيب في عينيه. كان تأثيره الواقي مذهلاً ولا يمكن التكهن به. حتى الرهبة البغيضة التي شعرت بها عند رؤية المخلوق وهو يظهر في الحياة ويتجسد أمامنا، تقلصت بطريقة ما، لدرجة إنني كنت قادرًا بشكل ما على أن أركّز عينيّ على الهواء فوق الوعاء دون خوف شديد.

ولكن ما إن بدأ في التشكل، وخرج من لا شيء كما كان، وأخذ ينمو في كل لحظة وتتحدد معالمه بدرجة أكبر، سادت المبنى وكل ما فيه فترة من الصمت الغريب. حلَّ صمت العصور خلال الليل، مثل حلول السلام المفاجئ في قلب الإعصار المتنقل، وخرج من هذا الصمت، ومن فيض الدم المتبخر تشكل الكائن القديم الذي أرسل أولًا المخلوق الناري من أجل هذه المهمة. نما وازداد قتامًا وتصلّب أمام أعيننا. لقد ظهر من وراء الطاولة، ولذلك بقيتْ الأجزاء السفلية غير مرئية،

ولكنّني رأيت الخطوط الخارجية تخطّط نفسها في الهواء، كما لو أنّها ظهرت ببطء عند ارتفاع الستارة. بدت وكأنّها لم ترتكز تمامًا على الأبعاد الطبيعية، ولكنّها انتشرت في جميع الجوانب ومنها إلى الفضاء؛ ضخمة، على تكثّفها بسرعة، لأنّي رأيت الأكتاف الهائلة والرقبة والجزء السفلي من الفكّين الداكنين والفم المريع، ثم الأسنان والشفتين... وعندما بدا أن الستار يكشف عن الوجه الرهيب بدرجة أكبر، رأيت الأنف وعظام الخد. كان ينبغي أن أنظر مباشرة إلى العينين، في لحظة أخرى...

لكن ما فعله د.سايلنس في تلك اللحظة، لم يكن متوقَّعًا، وأخذني على حين غرّة، حتى إنّني لم أفهم طبيعته أبدًا بشكل صحيح، ولم ير أنّه من المناسب أن يشرح لي الأمر تفصيلا. أصدر صوتًا ما مُتضمنًا ملاحظة آمرة، وعندما فعل ذلك، تقدم إلى الأمام وتدخل بيني وبين الوجه. ومن ثم اختفى الوجه عن نظري، بعد أن أوشك على الاكتمال وكنت أعتقد دائمًا أنه اختفى عمدًا عن نظري.

صرخ: «احذر! النار! النار!».

كان هنالك هدير مفاجئ كما لو أنه من لهب من فوهة

الحفرة، وأصبح كل شيء مضيئًا في ثانية واحدة، كما لو أن النهار قد حلَّ. مرّ وميض مبهر للبصر عبر وجهي. وللحظة كانت هناك سخونة، بدت قادرة على إصابة الجلد واللحم والعظم بالتيبس. ثم حان وقت العمل، وسمعت الكولونيل راج وهو يصرخ بصوت جهوري ووحشية أكثر من أي صرخة بشرية عرفتها على الإطلاق. امتصت السخونة بسرعة كل أنفاسي الخارجة من رئتي، وجرف توهج الضوء رؤيتي عندما اختفى في ظلام دامس.

عندما عادت حواسّي لتعمل بعد لحظات قليلة، رأيت أنّ الكولونيل راج اقترب منّي بوجه يلوح عليه الموت، ولونه الأبيض مبقعًا بشكل غريب. وقف د.سايلنس بجانبه، يلوح في عينيه تعبير بالانتصار والنجاح. في اللحظة التالية حاول الجندي أن يقبض عليّ بيديه. حينئذ ترنح ولأنه لم يستطع إنقاذ نفسه، سقط سقوطًا عنيفًا على الأرضية الحجرية.

هبت ريح شديدة حول المبنى بعد اختفاء اللهب، وبدت وكأنها قادرة على اقتلاع السقف من مكانه، ثم تلاشت فجأة كما جاءت. أثناء الهدوء الشديد الذي أعقب ذلك، رأيت أن الشكل اختفى وكان الطبيب منحنيًا على الكولونيل راج على

الأرض، محاولًا أن ينهضه لوضعية الجلوس.

قال بهدوء: «ضوءًا... مزيدًا من الضوء. أزل هذه الظلال!».

نهض الكولونيل راج فسقط وهج المصابيح المكشوفة على وجهه. كان وجهه رماديًا غريبًا، لا يزال ساخنًا، وبدا من نظرة عينيه وزوايا فمه أن هذه الفترة القصيرة من الزمن قد أضافت سنوات إلى عمره. في الوقت نفسه غادره تعبير الإجهاد والقلق. لقد ظهر عليه الارتياح.

قال: «لقد اختفى!» وهو ينظر إلى الطبيب بذهول، محاولًا النهوض على قدميه. «الحمد لله! لقد اختفى في النهاية». حدّق في المغسلة كما لو كان يريد أن يعرف مكانه. سأل بشكل صريح: «هل تحكم فيّ واستحوذ عليّ؟ هل تحدثت بترهات؟ لا أتذكّر شيئًا بعد أن حلّت السخونة...».

قال الطبيب: «ستشعر بنفسك مرة أخرى خلال بضع دقائق...». رأيت أنّه كان يمسح خلسة بقعاً داكنة من وجهه. «لقد نجحت تجربتنا و...».

نظر إليَّ سريعًا كي أخفي الوعاء، وكان واقفًا بيني وبين مضيفنا بينما كنت أضعه سريعًا تحت غطاء أقرب وعاء كبير.

أنهى كلامه: «ولم يتضرّر أحد من ذلك...».

سأل ولم يزل في حالة ذهول: «وماذا عن النيران؟ لن يكون هناك المزيد من النيران؟».

أجاب د. سايلنس بحذر: «لقد تبدّدت جزئيا، على أي حال».

واصل حديثه وهو يدرك جزئيًا ما يقوله: «والرجل الذي يقف خلف سلاحه، هل اكتشفت ذلك؟».

قال الطبيب بإيجاز: «لقد تجسد شكلٌ ما. أعرف الآن على وجه اليقين القوة التي الموجِّهة وراء كل ذلك».

استجمع الكولونيل راج نفسه ونهض على قدميه. لم تنقل له الكلمات أي معنى واضح حتى الآن. لكن ذاكرته كانت تعود تدريجيا، وكان يحاول تجميع أجزاء الموضوع في وحدة متماسكة. ارتجف قليلًا لأن المكان ازداد برودة فجأة. كان الهواء خاويًا مرة أخرى، بلا حياة.

قال د.سايلنس بلهجة من يقر حقيقة أكثر من كونه يسأل سؤالًا: «تشعر أنك على ما يرام الآن».

أخذ نفسًا عميقًا وقال: «نعم... شكرًا لكما». ثم مسح وجهه وحاول حتى إن يبتسم. لقد جعلني أفكر في رجلٍ كان عائدًا من ميدان المعركة ومازالت علامات القتال واضحةً عليه، لكنه يزدري جروحه. ثم التفت بوقار تجاه الطبيب بتساؤل في عينيه. لقد عادت إليه الذاكرة وعاد مرة أخرى إلى نفسه.

قال الطبيب بهدوء: «هذا بالضبط ما كنت أتوقّعه. لقد أُرسل المخلوق الناري في مهمّته في أيام مدينة طيبة، قبل ميلاد المسيح بقرون، وفي هذه الليلة أول مرة، منذ كل هذه الآلاف من السنين، تم تحريره من التعويذة التي ربطته في الأصل».

حدقنا فيه مذهولين وقد فتح الكولونيل راج شفتيه كي يخرج كلمات رفضت أن تُصاغ.

واصل حديثه بلهجة جادة، مشيرًا إلى الأرضية التي انسكب عليها السواد وقال: «واذا حفرنا، سنجد وصلة ما تحت الأرض؛ نفقًا على الأرجح، تؤدي إلى مزرعة الإثنتي عشر فدانًا. لقد صنعه سلفك».

لهث الجندي: «نفق صنعه أخي! إذن يتوجب أن تكون أختي على علم بهذا. لقد عاشت معه هنا...». توقف فجأة.

أمال جون سايلنس رأسه ببطء وقال بهدوء: «أظن ذلك. لا بد أن أخيك قد عُذب كثيرًا مثلك. (تابع بعد فترة صمت، بدا فيها الكولونيل راج منشغلاً بأفكاره) وحاول أن يجد السلام عن طريق دفنها في الغابة، وإحاطة الغابة بما يشبه دائرة سحرية كبيرة، مع أسحار الوصفات القديمة حتى لاحت النجوم التي رآها الرجل متوهجة...».

سأل الجندي بصوت خافت، متراجعًا إلى الوراء نحو دعامة الجدار: «لكن بدفن ماذا؟».

أعارنا د. سايلنس انتباهًا شديدًا للحظة قبل أن يجيب. أظن أنه كان يزن في عقله ما إذا كان سيخبرنا الآن، أو متى اكتمل التحقيق تمامًا.

قال بهدوء بعد لحظة: «المومياء. المومياء التي أخذها أخوك من مكان رقادها لعدة قرون وأحضرها إلى المنزل هنا».

ألقى الكولونيل راج بنفسه على أقرب مقعد، متعلقًا بلهفة بكل كلمة. لقد كان دهشًا جدًا من مسار الحديث.

«إنها مومياء لشخص ما مهم؛ كاهن على الأرجح، احتمت من التشويش والانتهاك عن طريق شعائر السحر في ذلك

الوقت. لأنهم فهموا كيفية ربط المومياء بقوة بدائية معها في القبر، من شأنها توجيه نفسها، حتى بعد عصور، على أي شخص تجرأ على التحرش بها، وفي حالتنا هذه؛ كان عنصرا من عناصر النار».

عبر الدكتور سايلنس الأرضية وأطفأ المصابيح واحدًا تلو الآخر. لم يكن لديه شيئًا أكثر ليقوله في الوقت الحالي. حذيت حذوه وطويت المنضدة ورفعت الكراسي، أما مضيفنا الذي كان لا يزال في حالة ذهول وصمت، فأطاعه بشكل ميكانيكي وتحرك نحو الباب.

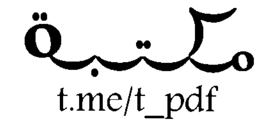
لقد أزلنا جميع آثار التجربة وأخذنا الوعاء الفارغ إلى المنزل وأخفيناه أسفل معطفًا طويلًا.

كان الجو باردًا وعطرًا عندما سرنا إلى المنزل، وبدأت النجوم تبهت في السماء، وهبت رياح الصباح الباكر المنعشة من الشرق حيث كانت السماء تشير بالفعل لليوم التالي. لقد تجاوزت الساعة الخامسة.

دخلنا خلسة إلى القاعة الأمامية وأغلقنا الباب، وبينما كنا نصعد السلالم على أطراف أصابع أقدامنا متجهين إلى غرفنا، نظر الكولونيل إلينا من فوق شمعته متمنيًا لنا ليلة سعيدة وقال

بصوت منخفض جدًا أننا يجب أن نبدأ الحفر في ذات هذا اليوم، إن كنا مستعدين.

ثم رأيته يتحرك خلسة إلى غرفة أخته واختفى.



4

بيد أن الإشارات الغامضة إلى المومياء، أو حتى احتمالية انكشاف الأمر انطلاقا من الحفر، لم تكن قادرة على إعاقة رد الفعل الذي أعقب الإثارة الشديدة أثناء الإثني عشر ساعة الماضية، فنمت نوم الموتى بلا أحلام ودون إزعاج. أيقظتني لمسة على الكتف ورأيت د. سايلنس واقفًا بجانب السرير، مرتديًا ملابس الخروج.

قال: «تعال، حان وقت الشاي. لقد نمت أفضل جزء من الاثنتي عشرة ساعة».

نهضت ودخلت الحمام سريعًا، بينما جلس رفيقي وتحدث. بدا منتعشًا ومرتاحًا وكان أسلوبه أكثر هدوءًا من المعتاد.

قال: «لقد جهز الكولونيل راج المجارف والمعاول. سنخرج لنُخرج هذه المومياء المدفونة في الحال، ثم لن يكون هناك سببًا يمنعنا من الفرار في قطار الصباح».

قلت بصراحة: «أنا مستعد للمغادرة الليلة، إذا كنت تود هذا».

لكنّ د. سايلنس هزّ رأسه.

قال بجدية، بلهجة جعلتني أظن أنه ربما لا يزال يتوقع حدوث أشياء خطيرة: «يجب أن أتابع الأمر حتى النهاية»، وتابع الحديث بينما كنت أرتدي ملابسي... شرح: «هذه الحالة مماثلة تمامًا لكل قصص مطاردة المومياوات ولا يمكن العبث مع أي منها، فقد تم وضع مومياوات الشخصيات الهامة؛ الملوك والكهنة والسحرة، في احتفالات كبيرة للغاية، وكانت محمية بشكل فعال للغاية، كما رأيت، من الانتهاك، وخاصة من التدمير».

تابع حديثه متوقعًا أسئلتي: «لقد ساد الاعتقاد العام، بأن ديمومة المومياء مكفولة بالكا الذي لها، لكن ليس من المستبعد أن التحنيط السحري كان مستخدمًا أيضًا لمنع تناسخ الأرواح، والحفاظ على الجسد ومنع عودة الروح إلى كد وانضباط الحياة الأرضية. على أي حال، فإنهم عرفوا كيف يربطون قوات الحارس العظيمة بالابتعاد عن المتعدين، وعن أي شخص تجرأ أن يزيل المومياء، أو يفككها بشكل خاص... حسنًا...». أضاف بلهجة ذات دلالة: «لقد رأيتَ، وسترى».

رأيت وجهه في المرآة بينما كنت أناضل مع ياقة القميص.

كان الأمر خطيرًا جدًا. لا يمكن أن يكون هناك شك في أنه تحدث عما آمن به وعرفه.

واصل حديثه: «لابد وأن الأخ المسافر الذي أحضرها إلى هنا مسكون أيضًا، لأنه قد حاول ابعادها عن طريق دفنها في الغابة، وصُنع دائرة سحرية لتطويقها. لابد وأنه عرف شيئًا ما عن الطقوس الحقيقية، لأن النجوم التي رآها الرجل بطبيعة الحال كانت بقايا النجوم الخماسية الملتهبة التي كان يتعقبها على فترات في الدائرة. ولكنه لم يكن يعرف ما يكفي، أو ربما كان يجهل أن حارس المومياء كان قوة نارية. لا يمكن محاصرة النار بالنار. ومع ذلك، كما رأيت، يمكن إطلاقها بها».

سألته بسعادة غامرة من تواصله معي: «وماذا عن هذا الشكل المرعب في المغسلة؟».

«مما لا شك فيه أن الكا الفعلي للمومياء تعمل دائما وراء وكيلها البدائي، وعلى الأرجح لآلاف السنين».

غامرت مرة آخرى: «وماذا عن الآنسة راج؟».

«آه الآنسة راج...» ثم كرر بوقار زائد: «الآنسة راج...».

نقر الخادم على الباب ليقول أن الشاي جاهز، وأن

الكولونيل قد أرسل ليسأل عما إذا كنا سننزل. تم قطع خيط الموضوع. تحرك د.سايلنس إلى الباب وأشار لي أن أتبعه. لكن أسلوبه أخبرني أنه على أي حال، لن تكون هناك إجابة حقيقية على سؤالي.

سألته، وأنا غير قادر على كبح فضولي: «وبخصوص مكان الحفر؛ هل ستجده من خلال عملية ما من التكهن أو...؟».

توقف عند الباب ونظر إليّ، وبهذا تركني لأنتهي من ارتداء ملابسي.

كان الظلام قد ساد عندما شق ثلاثتنا الطريق بصمت إلى مزرعة الاثني عشر فدان. كانت السماء ملبدة بالغيوم وظهرت ريح سوداء من الشرق. لقد علقت الكآبة بالمنزل القديم وبدا الهواء مليئًا بالتنهدات. وجدنا الأدوات جاهزة وموضوعة على حافة الغابة، فحمل كل منا أداته على كتفه. تتبعنا قائدنا في الحال بين الأشجار. تقدّم للأمام لنحو عشرين ياردة ثم توقف. عند قدميه كانت هناك الدائرة السوداء لأحد الأماكن المحترقة. كان هذا ملحوظا قبالة العشب الأبيض المحيط.

قال: «هناك ثلاثة من هذه الأماكن، تقع كلها في صف مع بعضها البعض. أي واحد منها سينقر على النفق الذي يصل

المغسلة -المتحف السابق- بالغرفة المدفونة فيها المومياء الآن».

قام على الفور بإزالة العشب المحترق وبدأ في الحفر، وكذلك بدأنا نحن أيضًا. بينما كنت أستخدم المعول، جرف الآخرون بقوة. لم يتكلم أحد. كان الكولونيل راج هو أكثر من يعمل بجد فينا نحن الثلاثة. كانت التربة خفيفة ورملية ولم يكن هناك سوى بعض الجذور التي تشبه الثعابين وأحجار سائبة متفرقة تعوقنا، قام المعول بعمله معها. وفي الوقت نفسه، ساد الظلام حولنا وكانت الرياح الشديدة تهدر خلال الأشجار فوق رؤوسنا.

فجأة اختفى الكولونيل راج حتى عنقه دون صرخة واحدة.

صاح الطبيب: «النفق!»، وهو يساعده في سحبه خارج النفق، فاحمر وجهه واشتد لهاثه، وقد غطته الرمال، وكذلك فعل العرق... «الآن، اسمحوا لي أن أتقدمكم». انزلق برشاقة أسفل الحفرة، وبعد لحظة سمعنا صوته يصعد إلينا وكان مكتومًا بسبب الرمل والمسافة.

سمعناه: «فلتأتي بعدي يا هابارد ثم الكولونيل راج؛ إذا رغب».

قال وهو ينظر إليّ، وأنا أُسرع: «بالطبع سأتبعك».

أصبحت الحفرة أكبر في ذلك الوقت، ونزلت على أطرافي الأربعة في قناة لا يزيد حجمها عن أخدود لا يزيد حجمه عن ماسورة صرف كبيرة، فوجدت نفسي في ظلام دامس. بعد دقيقة واحدة، كان هناك صوت ارتطام عظيم، أعقبه شلال من الرمال السائبة، معلنًا وصول الكولونيل.

قال د. سايلنس: «تعقبني ويمكن للكولونيل راج أن يتعقبك».

قطعنا طريقنا، بهذه الطريقة البطيئة الشاقة، بطول نفق تم العثور عليه بالحفر في الرمال المتحركة وتم تدعيمه بأعمدة ودعامات خشبية بطريقة غير متقنة. بدا لي أننا قد ندفن أحياء في أي لحظة. لم نتمكن من رؤية شبر واحد أمام أعيننا، لكن كان علينا أن نتلمس طريقنا ونتحسس الدعامات والجدران. كان التنفس صعبًا، وكان الكولونيل خلفي يحقق تقدمًا بطيئًا، لأن الوضع المتشنج لأجسادنا كان مؤلمًا جدًا.

لقد تحركنا بهذه الطريقة لمدة عشر دقائق وسرنا، ربما، إلى عشرة ياردات، عندما فقدت تعقبي للطبيب.

«آه!»، سمعت صوته مدويًا في مكان فوقي. كان واقفًا في مساحةٍ خالية وفي اللحظة التالية كنت واقفًا بجانبه. وصل الكولونيل راج فيما بعد بصعوبة ونهض هو أيضًا ووقف. ثم أعد د. سايلنس شموعه وسمعناه وهو يحاول إشعال أعواد الثقاب.

حتى قبل أن يكون هناك ضوء، اجتاحنا جميعًا شعور غامض بالرعب. وقفنا جنبًا إلى جنب في هذه الحفرة الموجودة في الرمال، على ثلاثة أقدام تقريبًا تحت الأرض. وقفنا متلاصقين متشنجين. أصابنا الخوف الشديد فجأة، وانتابنا إحساس بظهور شيء ما هائل، شيء ما رائع للغاية، لمس في كل واحد منا إحساسًا بالسمو والرهبة حتى قبل أن نتمكن من رؤية شبر واحد أمام وجوهنا. لا أعرف كيف يمكنني أن أعبر باللغة عن هذا الاحساس الغريب الذي اجتاحتنا هنا في ظلام دامس، ولم يلمس أي احساس بشكل مباشر، وبدا مع ذلك إدراكنا أنه كان يضطجع أمامنا في سواد هذه الليلة تحت الأرض، شيئًا ما عظيمًا يحمل جبروت العصور الطويلة الماضية.

شعرت بالكولونيل راج يضغط على جانبي، فأدركت فحوى هذا الضغط ورحبت به. لم تكن هناك أي لمسة إنسانية أكثر بلاغة من تلك اللمسة؛ على الأقل بالنسبة لي.

ثم اشتعلت عود الثقاب، وطارت آلاف من الظلال على الأجنحة السوداء، فرأيت جون سايلنس يتحسس طريقه بالشمعة وكان وجهه مضاء بشكل غريب من خلال الضوء الخافق الذي تحته.

ارتعبت من هذا الضوء، لكن عندما جاء، لم يكن هناك شيء على ما يبدو يمكنه أن يشرح الأحاسيس العميقة من الفزع التي سبقته. وقفنا في حجرة صغيرة مقببة في الرمال، وكانت الجوانب والسقف محاطة بقضبان من الخشب، والأرض مفروشة بما يبدو تقريبًا أنه بلاط. كان ارتفاعها ستة أقدام، ولهذا تسنى لنا جميعًا الوقوف بشكل مريح وربما كان طولها عشرة أقدام في عرض ثمانية أقدام. رأيت أن الكتابة الهيروغليفية المصرية التي كانت موجودة على الأعمدة الخشبية تضررت بشدة بصورة بالغة نتيجة للحريق.

أضاء د. سايلنس ثلاثة شموع وأعطى لكل واحد منا شمعة. وضع شمعة رابعة في الرمال قبالة الحائط الذي على يمينه، وأخرى لتكون علامة على مدخل النفق. وقفنا وحدقنا حولنا، حابسين أنفاسنا بشكل عفوي.

صاح الكولونيل راج: «يا إلهي! إنها فارغة!». ارتعد صوته

من فرط الإثارة. وبعد ذلك عندما ثبت عينه على الأرض، أضاف قائلاً: «انظر، هناك وقع خطوات، وقع خطوات على الرمال!».

لم يقل د. سايلنس شيئًا. انحنى إلى أسفل وبدأ بالبحث في الغرفة. عندما تحرك، تتبعت عيناي شخصيته الرابضة ولاحظت الظلال الغريبة المشوهة التي تدفقت على الجدران والسقف من بعده. لاحت هنا وهناك كميات قليلة من الرمال المتقلقلة تفور من على الجوانب. كان الجو -المعبأ بشدة بالروائح النفاذة- ساكنًا تمامًا، وربما تكون لُهب الشموع قد رسمت على الهواء كل الحركات التي غرَّرت بها.

لأنني شاهدت ذلك، كان من الضروري أن أقنع نفسي بشدة أنني كنت واقفًا منتصبًا بصعوبة في هذه الحفرة الرملية الصغيرة في حديقة حديثة في جنوب إنجلترا، لأنه بدا لي كما لو أني واقف في خضم رؤية ما عند مدخل معبد ما كبير منحوت في الصخر بعيد جدًا أسفل نهر التايم. كان الوهم قويًا ومستمرًا. احتشدت حولي أعمدة الجرانيت، التي ارتفعت إلى السماء، منظمة بشكل مهيب، وكان هناك سقف مثل السماء نفسها منتشر فوق خط من الأشكال الهائلة التي تحركت في

موكب غامض على طول الممرات المذهلة التي لا نهاية لها. تملكني بشكل واضح جدًا هذا الخيال الضخم والرائع، الذي لم أكن أعرفه من قبل، لدرجة أنني كنت مضطرًا فعليًا إلى تركيز انتباهي على شخصية الطبيب الصغيرة المنحنية، وهو يتلمس الجدران، كي أبقي عيني على المشهد الذي أمامي.

لكن المساحة المحدودة أدت إلى بحث طويل في المسألة، خارج عن الموضوع وفي الحال -وبدلًا من أن يمشي متثاقلًا في الرمال السائبة- اصطدم وقع أقدامه بشيء من نوعية مختلفة أعطى صدى رنانًا أجوفَ. انحنى ليفحصه من كثب.

كان واقفًا في وسط الغرفة الصغيرة تمامًا عندما حدث هذا، وبدأ في الحال في إزالة الرمال بقدميه. في أقل من دقيقة أصبح السطح الأملس مرئيًا؛ سطح الغطاء الخشبي. الشيء التالي الذي رأيته هو أنه رفعه وكان ينظر من قرب إلى مساحة موجودة في الأسفل. وعلى الفور، ظهرت رائحة قوية من التنر والقار، تمتزج مع الرائحة الغريبة للمساحيق العطرية غير المعروفة، خرجتْ من الفراغ غير المغطى وملأتْ القبو ولسعتْ الحلق وجعلت العينين تدمع وتتألم بشدة.

همس د.سايلنس: «المومياء!»، وهو يتطلع في وجوهنا

من فوق شمعته وعندما قال كلمته، شعرت أن الجندي يتمايل ناحيتي فسمعت وقع أنفاسه في أذني.

كرر الكلمة بصوت منخفض: «المومياء!». عندما تقدمنا إلى الأمام للنظر.

من الصعب أن أقول بالضبط السبب الذي جعل المشهد يثير فيّ شعورًا مذهلا جدًا من التعجب والتبجيل، فما كان لدي لأفعله معه لم يكن بالقليل، وقد حللت أعداد كبيرة منها واختبرت الكثير منها بطريقة سحرية، ولكن كان هناك شيء ما في منظر هذا الشكل الرمادي الساكن، وهو يرقد في صندوقه الحديث المصنوع من الرصاص والخشب في قاع هذا القبر الرملي، ملفوفًا في لفافات منذ قرون، مصنوعة من الكتان العطر الذي صلى به كهنة مصر وتلوا عليها أسحارهم الجليلة منذ آلاف السنين... شيء ما على مرأى منه يرقد هناك ويتنفس أجواءه المحملة بالطيب، حتى في ظلمات نفيه في هذه الأرض النائية. شيء ما اخترق جوهر كينونتي ولمس قاع مشاعر الرهبة التي تغفو في كل إنسان بالقرب من مجرى دموعه وإحساس العبادة الحقيقية بداخله.

أتذكر أنني ابتعدت بسرعة عن نظر الكولونيل، خشية أن

يرى مشاعري التي لا أفهم سببها والتفت وأمسكت بذراع جون سايلنس، ثم سقطت مرتجفًا ورأيت أنه هو أيضًا أخفض رأسه وكان يخفي وجهه بيديه.

اكتنفني نوع من الدوار، وقد خرج من حيث لا أدري من أعماق الذاكرة. وفي صفاء الرؤية سمعت الأناشيد السحرية القديمة من كتاب الموتى، ورأيت الآلهة تمر في موكب خافت؛ الكائنات الجليلة منذ القدم التي لم تكن سوى صفات مجسدة للآلهة الحقيقية؛ إله بعيون النار، وإله بوجه الدخان. رأيت مرة آخرى أنيبوس؛ إله بوجه كلب وأطفال حورس ومراقبي العصور الدائمين، وهم يحيطون بأوزوريس؛ أول مومياء في العالم، وأول الفرق الصوفية المعطرة، وتذوقت مرة أخرى شيئًا من نشوة الروح عندما شرعت في قارب رع الذهبي، وسافرت لتستقر في ساحات المنعم عليهم.

عندما انحنى د. سايلنس، بإجلال تام ولمس الوجه الساكن، الذي كان يحدق بشكل مخيف بعينيه المخضبتين، ارتفع مرة أخرى إلى فتحات أنوفنا أمواج من هذا العطر القادم منذ آلاف السنين، وعاد الزمن إلى الخلف وكأن ذلك محض شيء تافه، مُظهرًا لي في مشهد مغمور بالأرواح أروع حلمٍ في العالم كله.

تناهت إلينا هسهسة لطيفة مسموعة في الهواء، فتراجع الطبيب سريعًا. اقتربت من وجوهنا ثم بدا أنها كانت تدور حول الجدران والسقف.

تمتم: «لاتزال بقية النار تنتظر إتمامها النهائي». لكنني سمعت الكلمات والهسهسة كأشياء بعيدة، لأنني كنت لا أزال مشغولًا برحلة الروح عبر قاعات الموت السبعة، وكنت أستمع إلى أصداء أعظم الطقوس الدينية التي عرفها البشر على الإطلاق.

لا تزال الأواني الخزفية المغطاة بالهيروغليفية، موجودة بجانب المومياء وحولها، مرتبة بعناية عند نقاط البوصلة، ولازالت هناك الأربعة جرار ذات رؤوس تشبه رأس الصقر وابن آوى ورأس الكلب والانسان؛ هذه الجرار التي وُضع فيها الشعر وقصاصات الأظافر والقلب وأجزاء آخرى من الجسم، وحتى التمائم والمرآة وتماثيل الطين الزرقاء لكا والمصباح ذو السبعة فتائل. الشيء الوحيد الذي كان مفقودًا هو الجعران الذهبي.

سمعت د.سايلنس يقول بصوت مهيب وهو ينظر إلى الكولونيل راج بنظرة ثابتة: «لم يُبعَد عن مكان استقراره القديم

فقط، لكنه كان مفككًا جزئيًا». ثم أشار إلى أغطية الصدر... «وقد تم إزالة الجعران المقدس من العنق».

توقفت الهسهسة، التي بدت كهسهسة لهب غير مرئي، وقد سمعناها فقط من وقت لآخر كما لو أنها مرت إلى الأمام وإلى الخلف في النفق، ووقفنا ننظر في وجوه بعضنا البعض دون أن ننبس بشفة.

قام الكولونيل راج بجهد كبير ونشّط نفسه. سمعت صوته يتردد في حلقه قبل أن تصبح الكلمات مسموعة بالفعل.

قال بصوت منخفض جدًا: «أختي»، ثم تبع ذلك مدة توقّف طويلة كسرها جون سايلنس أخيرًا.

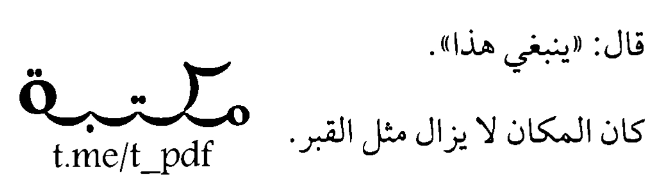
قال بجدية: «يجب استبدالها».

قال الجندي، مجبرا نفسه على قول كلمات يكره قولها: «لم أكن أعرف شيئًا على الإطلاق».

كرر الآخر: «يجب إعادته، إذا لم يكن الوقت تأخر الآن كثيرًا بعد. لأنني أخشى... أخشى أن...».

أبدى الكولونيل راج حركة موافقة برأسه.

قال: «ينبغي هذا».



كان المكان لا يزال مثل القبر.

لا أدري حينها ما الذي جعلنا نلتفت جميعًا نحن الثلاثة حولنا بفزع مفاجئ، لأنه لم يكن هناك صوت مسموع.

كان الطبيب على وشك الاستعاضة عن الغطاء الذي على المومياء، عندما استقام كما لو كان قد تم إطلاق النار عليه.

قال الكولونيل راج بصوت خافت: «هناك شيء ما قادم»، وأراني الطبيب الاتجاه الصحيح وهو يرمق فتحة النفق الصغيرة.

أصبحت الضوضاء البعيدة مسموعة بوضوح، قادمة من نقطة في منتصف الطريق في النفق الذي اخترقناه بشكلٍ مجهد جدًا.

قلت مع أنني علمت أن هذا كان مجرد حماقة: «إنها الرمال تتساقط».

قال الكولونيل بهدوء، بصوت له طنين حديد: «لا... لقد سمعته لبعض الوقت في الماضي. إنه شيء ما حي. إنه يقترب».

حدق حوله بنظرة حاسمة جعلت وجهه يبدو نبيلا. كان الرعب جامحًا في قلبه، لكنه وقف هناك مستعدًا لأي شيء قد يأتي.

فقال جون سايلنس: «ما من مخرج آخر».

أحنى الغطاء قبالة الرمل وانتظر. علمت من تعبير وجهه وشحوبه وثبات عينيه، أنه توقع شيئًا ما، قد يكون مروعًا جدًا.

وقفت أنا والكولونيل على جانبي الفتحة. كنت لا أزال أمسك بشمعتي وخجلت من الطريقة التي اهتزت بها وتساقط الشحم في كل مكان حولي، لكن الجندي وضعه في الرمال خلف قدميه.

هرعت إلى ذهني أفكار دفنهم أحياء، وخنقهم مثل الجرذان في الفخ، والقبض عليهم وإعدامهم من قبل قوة ما غير مرئية لا ترحم، لا يمكننا مواجهتها.

ثم فكرت في النار وفي الاختناق وفي فكرة أن تُشوى حيًا. تدفق العرق على وجهي.

جاء صوت د. سايلنس لي من خلال القبو: «اثبت!».

وقفنا ننتظر لمدة خمس دقائق، وبدت كأنها خمسون دقيقة. كان ينظر بعضنا عبر وجوه بعض إلى المومياء، ومن المومياء إلى الحفرة، وطوال الوقت كان صوت وقع الخطوات الناعم الخفي، يقترب تدريجيًا. كان التوتر -بالنسبة لي على الأقل- قد اقترب من مرحلة الانهيار، حتى وصل مصدر هذا الاضطراب في نهاية الأمر إلى الحافة. كان مختبئًا للحظة وراء الحافة المكسورة للتربة. تدفقت بعض الرمال على الأرض إثر هذا الاهتزاز القريب. لم يسبق لي في حياتي أن رأيت شيئًا يسقط بمثل هذا التروِّي الشاق. في اللحظة التالية صدر صوت صرخة من نوعية غريبة وأصبح في متناول الرؤية.

كان الأمر أكثر فظاعةً وألمًا من أي شيء آخر كنت أتوقعه.

ظننت أنني كنت بالفعل مستعدًا إلى حد ما لرؤية وحش ما مصري أو إله ما للمقابر، أو حتى شيطان النار، ولكن بدلاً من ذلك رأيت الهيئة البيضاء للآنسة راج مؤطرة في تلك الفتحة الرملية المستديرة، ويليها جسدها وهو يزحف على أطرافه الأربعة، وعيناها منتفختان، تعكسان الوهج الأصفر للشموع. كان ردّ فعليّ الغريزيّ هو الالتفات والجري مثل حيوان هائج يبحث عن وسيلة للهروب.

لكن د. سايلنس -الذي لم يُبد مثقال ذرة من الشعور بالمفاجأة- أمسك بذراعي وثبَّتني، ثم رأي كلانا الكولونيل يسقط على ركبتيه ويصل إلى مستوى أخته. تفرسا الوجهان بصمت بعضهما في بعض لأكثر من دقيقة كاملة، كما لو أنهما قد ارتطما بحجر. كان الأمر كذلك بالنسبة لوجهها بسبب الإحساس المخيف الذي بدا عليه وكأنه غرغول أكثر من أن يكون أي شيء بشري، أما بالنسبة لوجهه فقد كان أبيض شاحبًا، يرتسم عليه بتعبير أكبر من الدهشة والانزعاج. نظرت للأعلى ونظر هو للأسفل. لقد كانت صورة في كابوس، وألقت عليها الشمعة العالقة في الرمال بالقرب من الحفرة وهج الضوء المرتجل.

ثم تقدم جون سايلنس للأمام وتحدث بصوت خفيض جدًا، لكنه كان هادئًا تمامًا وطبيعيًا.

قال: «أنا سعيد لأنكِ أتيتِ. أنتِ الشخص الوحيد الذي يُعدُّ وجوده في هذه اللحظة مطلوبًا للغاية. وآمل أن يكون الوقت حان لتهدئة غضب النار ولإحلال السلام مرة أخرى على أسرتك و... (أضاف بصوت منخفض بحيث لم يسمعه أحد سوى أنا فقط) لأجل سلامة نفسك».

وعندما تعثر شقيقها إلى الخلف وسحق الشمعة في الرمال بسبب ارتباكه، زحفت السيدة العجوز إلى داخل الغرفة المقببة ونهضت ببطء على قدميها.

على مرأى من شكل المومياء الملفوف، كنت على استعداد تام لرؤية صراخها وإغمائها ولكن على العكس من هذا -الأمر الي أدهشني- أحنت رأسها فقط وسقطت بهدوء على ركبتيها. ثم بعد فترة توقف دامت لأكثر من دقيقة، رفعت عيناها إلى السقف وبدأت شفتاها تتمتمان كما لو أنها تصلي. في حين أن يدها اليمنى، التي كانت تتحسس حلقها لفترة من الوقت ابتعدت فجأة، وقبل أن تحدق فينا جميعًا رفعتها، وكذلك رفعت باطن الكف إلى أعلى فوق الشكل الرمادي القديم المنبسط أسفلها. وفيه شاهدنا لمعان اليشب الأخضر للجعران المسروق.

تفوه شقيقها بصوت كان نصفه بكاء ونصفه الآخر تعجب، وهو يميل بشدة على الجدار خلفه، ولكن جون سايلنس، الذي كان واقفًا أمامها مباشرة، ثبَّت عينيه عليها فقط، وأشار إلى الأسفل نحو الوجه المحدق.

قال بصرامة: «أرجعها إلى حيث تنتمي».

كانت الآنسة راج راكعة عند قدمي المومياء عندما حدث هذا. ثبتنا أعيننا نحن الثلاثة على ما تلا ذلك. يمكن فقط للقارئ الذي قد يكون شاهد مصادفة مجموعة من المومياوات وضعت حديثًا في قبورها على الرمال، تتحرك وتنحني ببطء، عندما تدفيء سخونة الشمس المصرية أجسادها القديمة في شكل من أشكال الحياة... يمكن لهذا القارئ أن يتصوّر الرعب المطلق الذي اختبرناه عندما تحرك الشكل الصامت أمامنا في قبره المصنوع من الرصاص والرمال. تلوّت أمام أعيننا ببطء ونهضت مع تناهي هسهسة ضعيفة للأكفان القديمة إلى آذاننا، وانطلاقا من عيون معصوبة لا ترى، حدَّقت عبر ضوء الشموع الأصفر في المرأة التي انتهكتها.

حاولت التحرك، وحاول أخوها أن يتحرك هو الآخر، لكن بدا أن الرمال كانت تمسك بأقدامنا. حاولت أن أصرخ وحاول أخوها الصراخ ولكن بدا أن الرمال كانت تملأ رئتينا وحلقنا. كل ما استطعنا فعله هو أن نستمر في التحديق، ومع ذلك بدا أن الرمال كانت ترتفع مثل عاصفة صحراوية وأن الرؤية تغيم...

عندما تمكنت أخيرًا من فتح عيني مرة أخرى، كانت المومياء ترقد مرة أخرى على ظهرها بلا حراك، وكان الوجه

المنكمش والملون مقلوبًا تجاه السقف، وكانت السيدة العجوز قد تهاوت إلى الأمام، وكانت مستلقية وكأنها ميتة ورأسها وذراعيها على جسدها المنهار.

لكني رأيت اليشب الأخضر للجعران الذهبي المقدس يلمع مرة أخرى على لفائف العنق وكأنه عين حية.

استعاد الكولونيل راج والطبيب شتات أنفسهما قبلي بفترة طويلة، ووجدت نفسي أساعدهما بطريقة خرقاء وغبية على رفع الجسم الضعيف للسيدة العجوز، بينما قام جون سايلنس بحرص، بإعادة الغطاء فوق القبر وكشط الرمال بقدمه، وأصدر تعليمات موجزة.

سمعت صوته كما لو أنني في حلم. لكن رحلة العودة على طول هذا النفق الضيق، وحمل امرأة ميتة، مع عدم امكانية الرؤية بسبب الرمل، والشعور بالاختناق بسبب السخونة، لم تكن حلمًا بأي حال من الأحوال. استغرقنا حوالي نصف ساعة للوصول إلى الهواء الطلق. وحتى مع ذلك، كان علينا الانتظار وقتًا طويلاً كي يظهر د.سايلنس. حملناها خفية إلى المنزل وصعدنا بها إلى غرفتها.

سمعت د. سايلنس يقول لمضيفنا فيما بعد في ذلك المساء

بينما كنا نستعد لأن نسافر في قطار تلك الليلة: «لن تسبب المومياء المزيد من الاضطرابات». ثم أضاف بجدّية: «شريطة ألا تسبّب لها أنت وأسرتك أيّ ازعاج».

غادرنا... وكأننا في حلم أيضًا.

قال لي عندما كنّا نتدثر بخرقنا في المقصورة الفارغة: «أعلم أنك لم تر وجهه السيدة». وعندما هززت رأسي، غير قادر تمامًا على تفسير الغريزة التي دفعتني للامتناع عن النظر إليها، التفت نحوي، وكان وجهه شاحبًا وحزينًا حقًا.

همس: «كان الوجه محروقًا ومشوّهًا».





الجيرنون بلاكوود

الدكتور جون سايلنس، أو كما يطلق عليه بعضهم "الطبيب الفذّ" الذي يحظى باحترام وتقدير واسع؛ لما يقوم به على صعيد التطبيب والتحقيق. فهو يعد أشهر محقّقي ومفسّري ومعالجي الحالات الصعبة وغير المألوفة، الخارجة عما هو معروف وذات الطبيعة الغامضة.

عندما نشر آلجيرنون بلاكوود المجموعة القصصية أول مرة في كتاب "ثلاث قصص لجون سايلنس" سرعان ما اشتهر بوصفه "سيد الحكايات الغامضة"، ثم أطلق النقّاد عليه اسم: "شارلوك هولمز عالم الماورائيات والخوارق".

لم يكن جون سايلنس مجرّد طبيب يهوى التحقيق في الأمور الشاذة للعادة في أوقات فراغه، بل كان صوفيًا مستبصرًا بارعًا في الفنون الباطنية، وأستاذًا في العلوم الغامضة، يسعى بشغف العالم لحل هذه المشكلات وفهم كينونتها.

